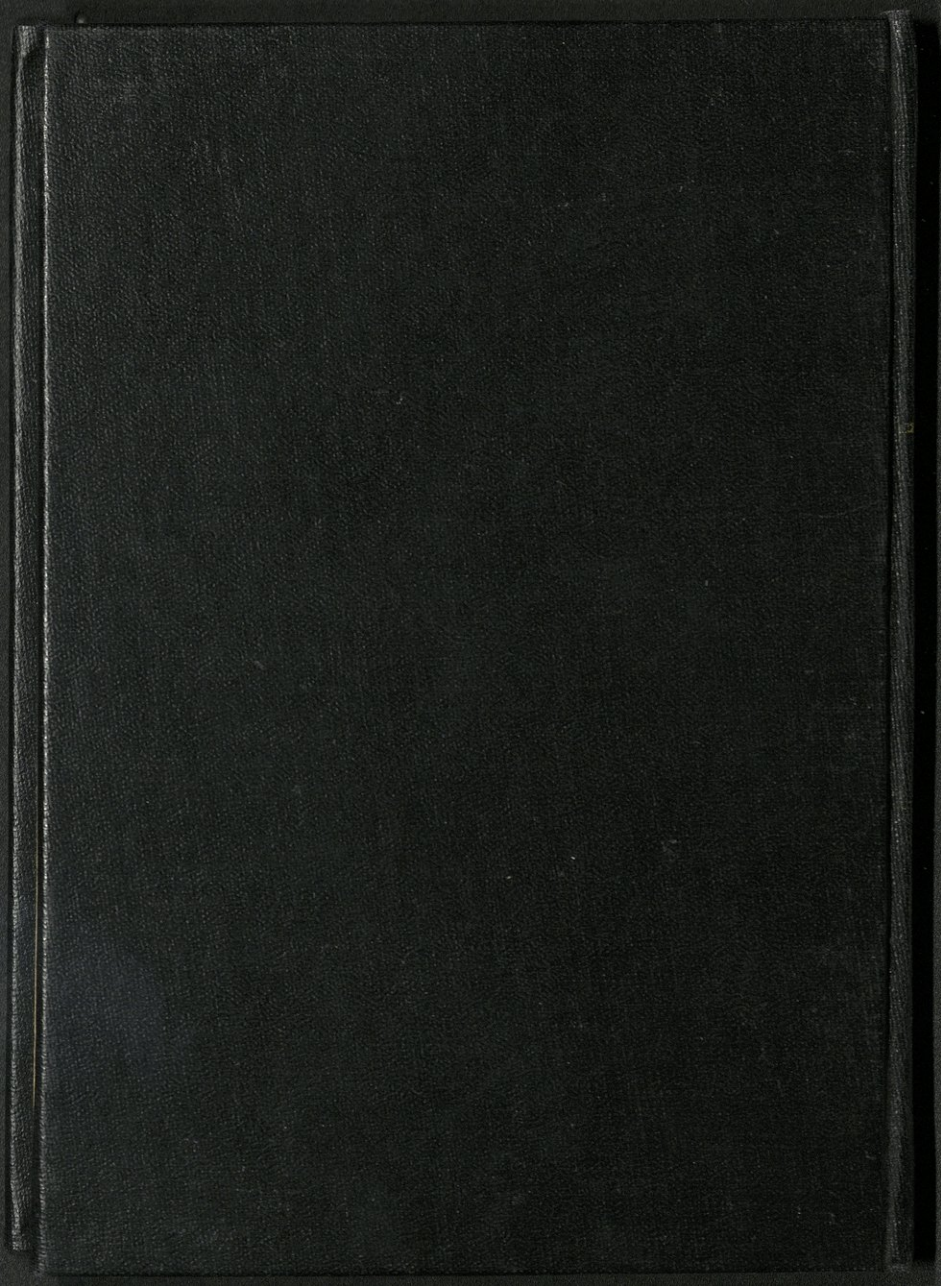
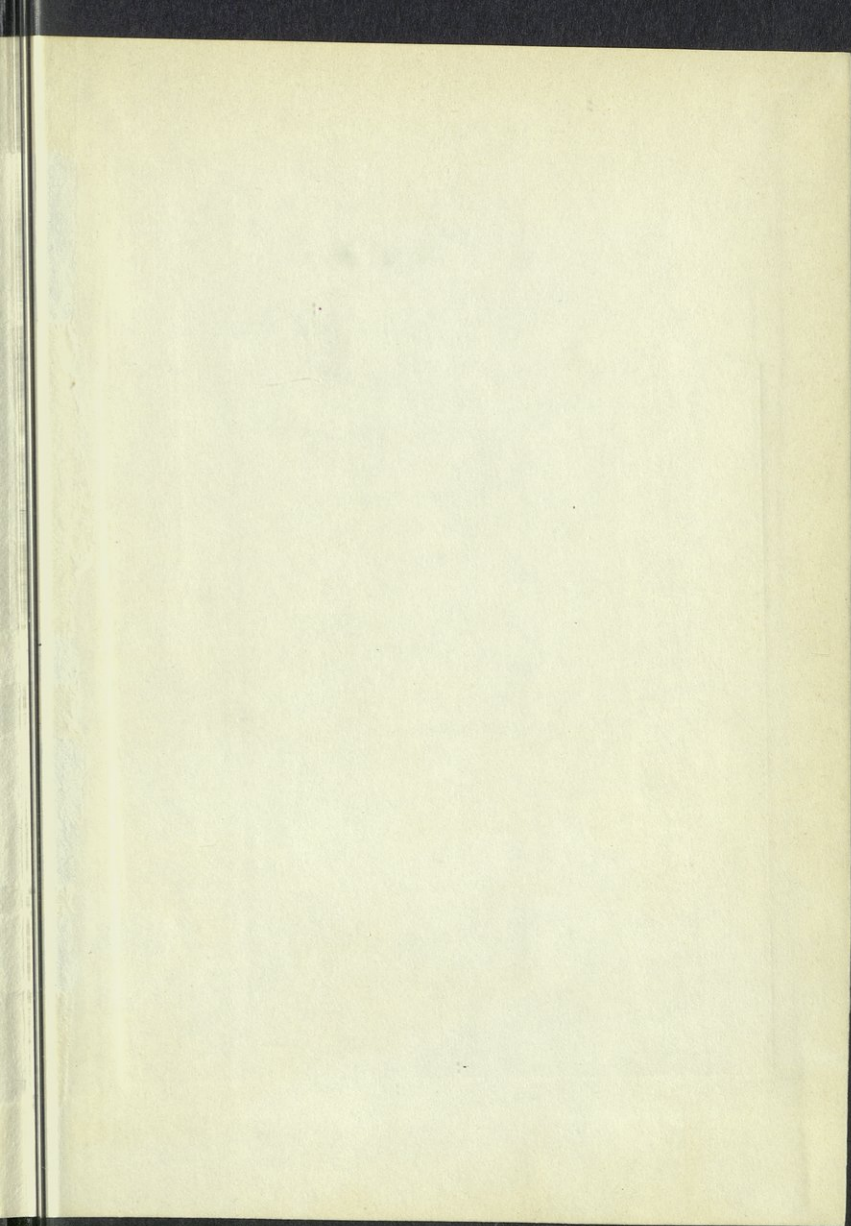
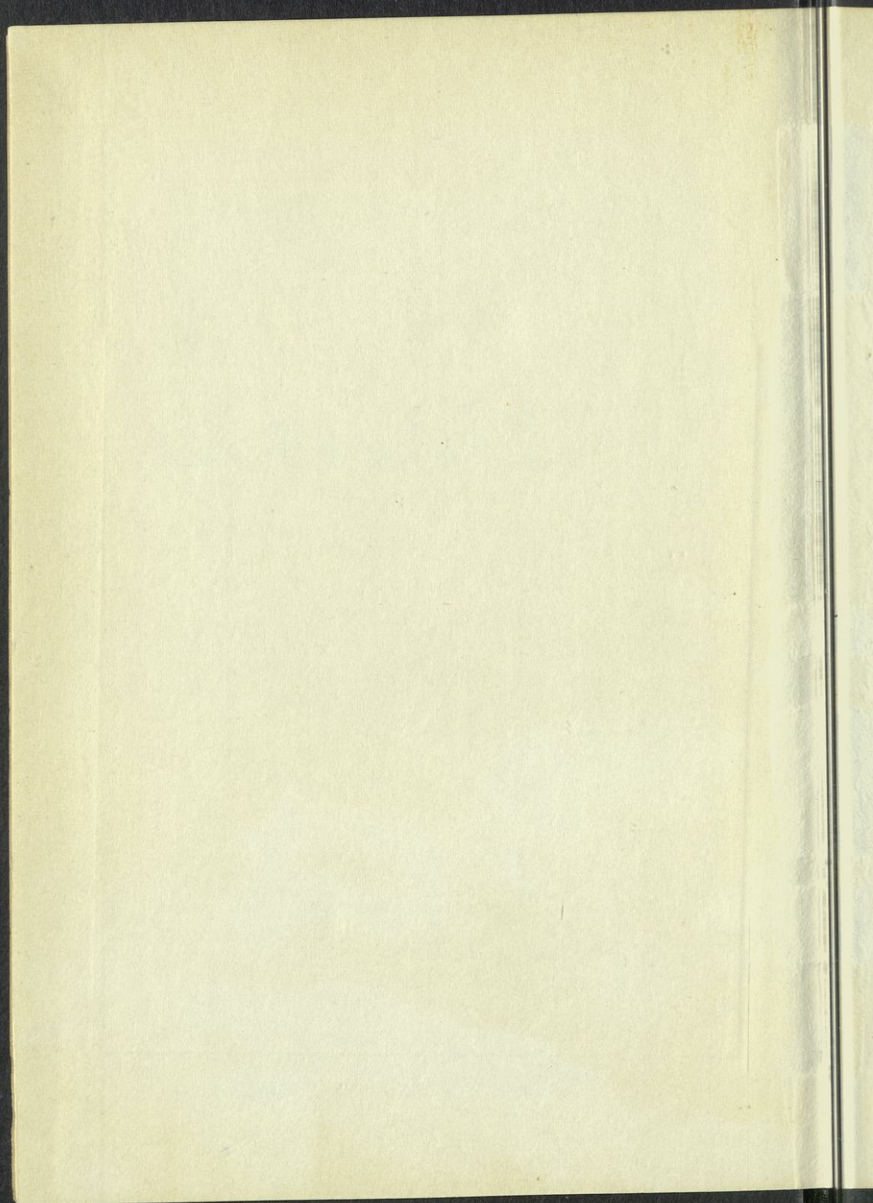


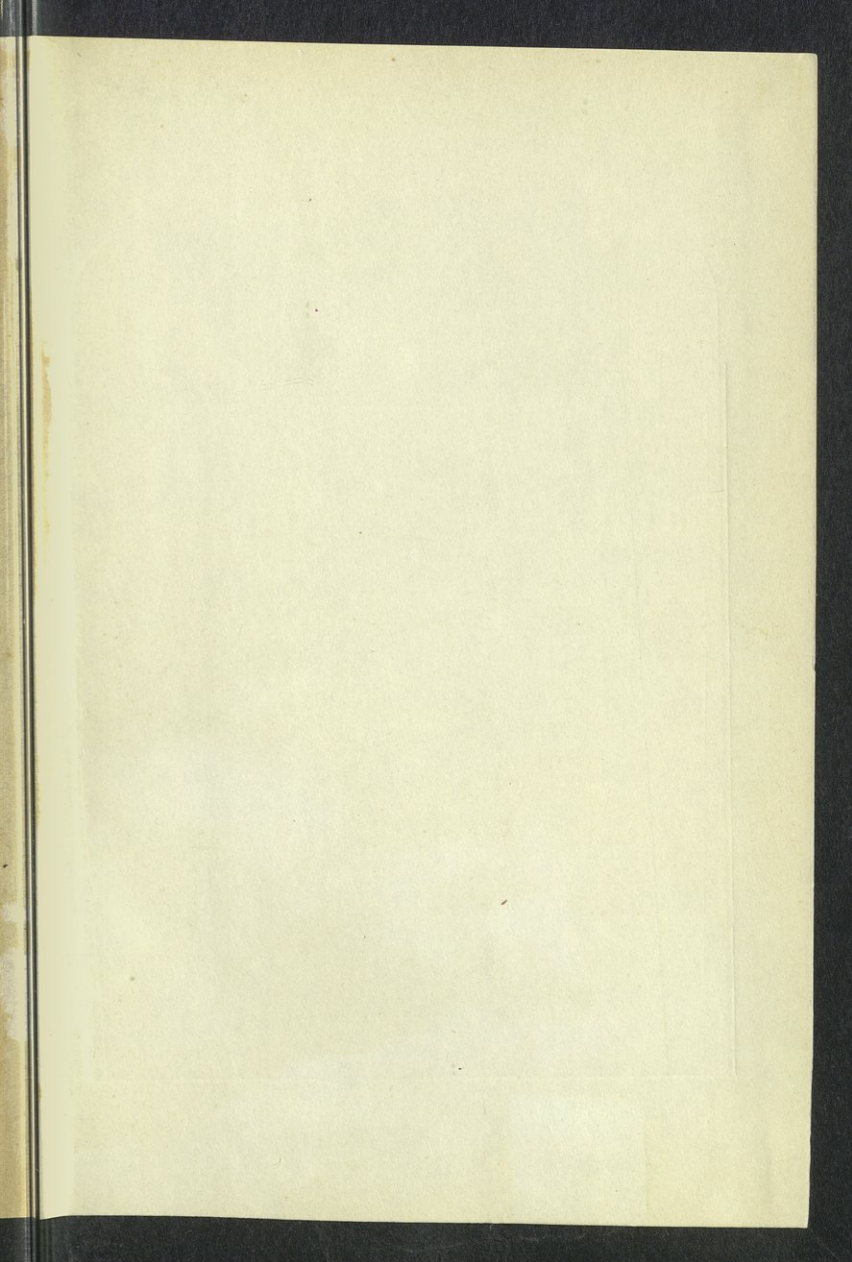


A.U.B. LIBRARY

...







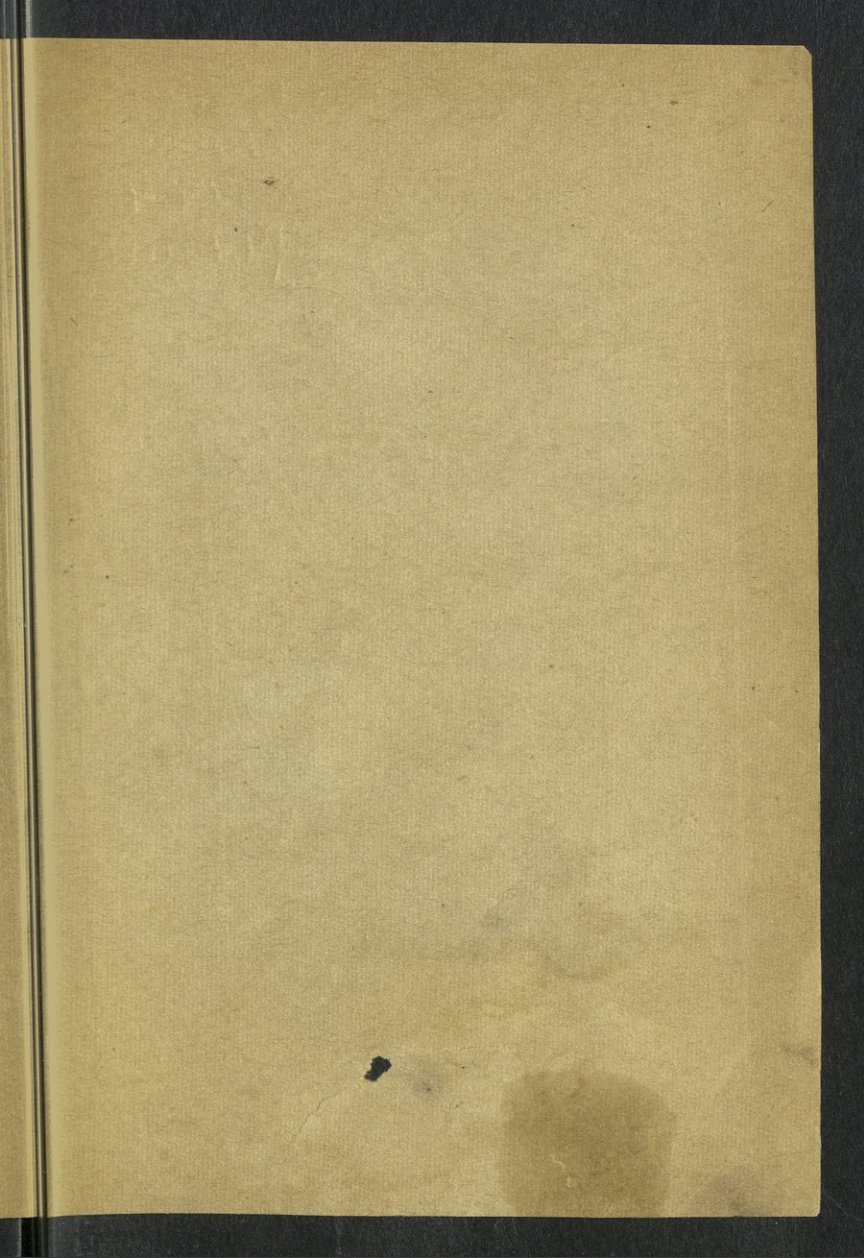
2-17-64
A112-4
297.64
A1476uA
ع. 1
أم الرسول "محمد"

آمنة بنت وهب

تأليف

الدكتورة بنت الساطي

حقوق الطبع محفوظة لدار الهلال



« ائما انا ابن امراة من
قريش تاكل القديد »

محمد رسول الله

مناجاة

أما « آمنة » ...

ما تلوت من وحى السماء الى وحيدك الحبيب ، حديثه
الجهير عن بشريته :

« انما أنا بشر مثلكم ... »

« سبحان ربى ، هل كنت الا بشرا رسولا ؟ »

الا ذكرت أن نبينا الكريم ، هو الانسان الذى حملته
جنينا فى أحشائك ، ووضعتة كما تضع كل أنثى من
البشر ...

ولا تدبرت معنى قوله تعالى لابنك الخالد :

« وما أرسلنا من قبلك الا رجالا »

الا تنبهت الى أن لهؤلاء القادة الرسل أمهات ، وأن المرأة
التي أنجبت البطل فى كل صورة ، وفى كل حين ، هى التي
قامت عن « عيسى بن مريم » الذى قالوا انه اله ، وهى التي
جاءت « بمحمد بن آمنة » رسول الله وخاتم النبيين

وهذا صوت وحيدك يملا سمع الزمان على مر الآباد :

« انما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد » فيحقر
كبرياء الملوك ، ويسمو بأموئك الى أفق لا يتناول اليه

تترف الغنى ولا جاء المادة ، اذ يجعل منك أيتها الانثى
الوديعة المتواضعة ، والام الطيبة الرءوم ، مبعث أنسه ،
وروح انسانيته ، وآية محبته ، وموضع اجلاله واعتزازه



أماه « آمنة » ...

هو أبدا مجد الامومة الذى خلد واهبات الحياة على الدهر ،
وصانعات التاريخ منذ الازل والى الابد ، وقد توجك
وحيدك العزيز بتاج سماوى من هذا المجد الازلى الابدى ،
حين هتف قائلا :

« الجنة تحت أقدام الأمهات »

وهو أبدا فخر الانوثة التى حمت سر الوجود فى هذا
الكون ، وحفظت حياة الانسانية فى هذه الدنيا ، اذ حملت
أجنة البشرية وهنا على وهن ، فأى شعور غامر كان يملأ
قلب ولدك ، حين أوصى الذى سألته عن أحق الناس
باكرامه: أكرم أمك، ثم أكرم أمك ، ثم أكرم أمك، ثم ...
أباك ؟ !



أماه « آمنة » ...

عن مجد الامومة فيك ، وبطولة الانوثة منك ، جئت
أتحدث اليوم عن سيدة الأمهات التى جادت على الانسانية

بوليد وحيد ، حملت الملايين رايته في أرجاء الأرض على مر
الزمن ..

يتيم ، اعتز به الآباء الصيد والأصول الإنجاد ..
فقير ، حييت باسمه الدني وفاضت الحيرات
وماذا كنت تبغين من ذلك يا أمام ، لو أنك كنت ملكة
متوجة ، أو فارسة مغوارة ، أو عالمة مبتكرة ، أو زعيمة
قائدة ثم لم تلدى « محمدا : رسول الله » ؟
وأى عمل لك يا أمام أجل وأعجد ، من أنك كنت المنجبة
لهذا الرجل الرجل ، ووالدة ذلك الرسول البطل ؟



وهأنذى أقف خاشعة أمام صورتك ، وقد حفت بها من
أمومتك أضواء باهرة السننا ، فيكاد جلالك يثني عن
اطالة النظر اليك ، لولا أن أعود فأذكر أنك أم « محمد »
الذى أصر على الاعتراف ببشريته ، فكان هذا الاعتراف
منه ، آية عظمتك وسر خلودك !

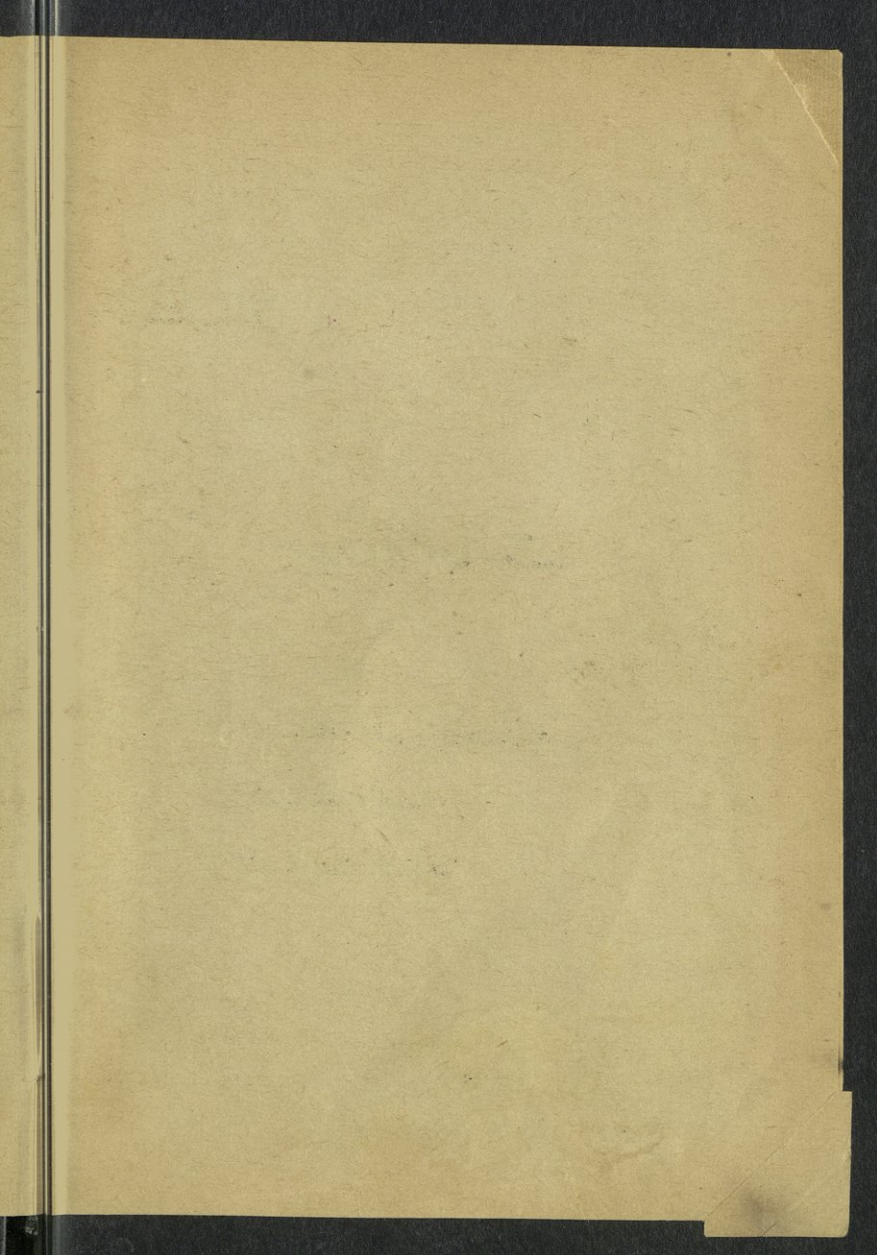
الكتاب الاول

سيدة الأمهات

١ - هذه السيرة ومصادرها

٢ - أنوثة وأمومة

٣ - أمهات الانبياء



هذه السيرة ومصادرها

بدأت هذه المحاولة في درس سيرة السيدة «آمنة» وأنا أعى أتم الوعي، نقص المصادر والاخبار التي تحدث عن تلك الأم المنجبة ، لكنى لم أجزع لذلك ، اذ قدرت أنى انما أحدث عن والدته الرسول العظيم ، وأم البطل الذى هو فى حساب الحياة صفوة جنسه وخلاصة قومه ، ومن ثم مضيت التمس ملامحها ، فى صورة ابنها العظيم الذى أوته أحشاؤها ، وغذاه دمه ، واتصلت حياته بحياتها ، فلقد كان « محمد » هو الاثر الجليل الذى خلفته « آمنة » فليس بعجيب أن أراها فى ضوء هذا الاثر ، وأن يكون فهمى لها عن طريق تأمل عملها الفذ ، ممثلا فى ولدها العظيم

فهذا الحديث عن « آمنة بنت وهب » يتخذ من شخصية ابنها مصدرا هاما نستعين به على فهم شخصيتها ، وذلك بما تركت فيه من أثر واضح ، وما نقلت اليه من دماء قومها الكرام الذين تنقل فى أصلاهم جيلا بعد جيل ، وما حملته اليه من خصائص الأرومات الأولى التى اعتز بالانتساب اليها فى مثل قوله عليه الصلاة والسلام : ان الله اختاره من كنانة ، واختار كنانة من قريش ، واختار قريشا من العرب ، فهو خيار من خيار من خيار

أو قوله :

« أنا ابن العواتك من سليم »



ثم كان لى الى جانب هذا المصدر ، ما وعى التاريخ من أخبار آباء «آمنة» وأجدادها نساء ورجالا ، وما حفظ لنا من طابع البيئة التى نشأت فيها ، وما عرفت الحياة من صورة الانوثة والامومة عند قومها ، وما اطمأن اليه العلم من ترابط الاسباب وتناسق الاصول ومجرى الوراثة ، وفى هذا كله ما يجلو شخصية « آمنة » كما عرفتها دنياها ، وصنعتها بيئتها ووراثتها وظروفها ..

ذلك أن « آمنة » لم تكن سوى ثمرة للبيئة والوراثة ، قد جرت فى عروقها دماء الاصول الاولى ، ونمتها العوامل التى تركت طابعها الخاص فى كل ما أحاط بها من ظروف الزمان والمكان

أجل هى ثمرة طبيعية ، يستطيع الدارس المحقق أن يلتمس جذورها الاصلية الممتدة فى أعماق منبتها وأعراق آلهة ، وأن يستبين ملامحها ومعارفها فى الهواء الذى تنفسته والجو الذى عاشت فيه ، فاذا لديه تفسير مقبول لاكثر ما حسبه بعض الناس خوارق مباغتة ومفاجآت عجيبة ، ناسين أنها أم الرسول الكريم الذى أصر على الاعتراف بشريته ، ولم يكن ليرضيه قط أن تبرأ أمه من هذه البشرية ، أو أن يضاف اليها ما يشذ بها عن سنة الله التى فطر الناس عليها ، أو أن تلون شخصيتها بما يجعل

ولدها كائنا عجيبا لم ينمه عرق ، ولا أمدّه أصل ، ولا غذته
وراثه ، ولا نهضت به بيئة ٠٠



على أنى حين مضيت فى تتبع الاصول البعيدة لآمنة ،
ولمح الشخصيات الواضحة لندىها ، ألفت الى جانب
ما يطمئن اليه العلم من مجرى الوراثة وفعل البيئة ، حشدا
من آثار أخرى ليست من ذاك الصنف الأول ولا هى من
واديّه ٠٠٠ آثار يحرص كثير من الدارسين على تجاهلها ،
اذ يرون فيها طابع الخيال وظل الوضع ، وفاتهم أن ينتبهوا
الى دلالتها الاجتماعية التى لا تكذب ، والتى تمد الدارس
بأضواء تكشف عما وراء التاريخ المادى من عالم نفسى ،
وتكمل ما تتركه الاخبار من ثغرات فى فهم طبيعة المجتمع
تلك الآثار ، هى ما خلفه لنا قوم رأوا فى السيدة « آمنة »
صورة الكمال المطلق لأم رسول ، فتحدثوا عنها بوحى من
قلوبهم المعجبة ، ودافع من وجدانهم المؤمن ، ما كذبوا فى
ذلك ولا مانوا ، ولا خدعوا ولا خانوا ٠٠

ولغيرهم من أهل العلم والتحقيق أن يقولوا ما يأذن به
الدرس المنهجى وراء سور الوجدان ، وبعبدا عن عالم
القلوب ، ودون أفق الحب والايمان ، ولا بأس على هؤلاء
ولا أولئك ، مما يقال هنا باملاء العقل ، أو يقال هناك
بلسان العاطفة والايمان ٠٠

وكذلك يلتقى العلم والفن ، لا يعدوان على حقيقة ولا

يجوران على صواب ولا يتهمان بكذب ، فاذا قال الدارس عن « آمنة » ما قال ، مستنبأ الوراثة ، مستلهما البيئة ، متتبعا المؤثرات والآثار فى الأصول والفروع ، فهو محقق صادق غير متهم ..

واذا قال فيها المحب الوافق والمؤمن الواقف ما قال بلسان الوجدان ، مفسرا بذلك ما يشعر به من عظمتها ، معبرا عن صورتها عنده ، وحقيقتها فى وزنه ، وجوهرها فى قلبه ، فهو صادق محقق كذلك ، لا يسىء الى الواقع الخارجى فى شىء ، لانه ليس من أهل هذا الواقع ، بل هو يحدث عن عالم قلبه ويعبر عن دنيا وجدانه ، ويترجم عن تفسيره لما بهره من عظمة ، وما عشق من بطولة ، وما أحس من الانفعال بجمال تراه بصيرته ، وجلال يهز مشاعره ، وتلك دنياه لا يشركه فيها أحد ، ولا يزاحمه فى آفاقها أحد مهما تتسع وتمتد ، أو تبعد وتترام ...



وأحسبني بهذا القول ، قد مهدت لما أريد أن أقرره هنا ، من عنايتى باللغة بكل ما قيل عن السيدة « آمنة » ، لم أقتصر فى ذلك على الخبر التاريخى الثابت ، بل لم يكن اهتمامى به أكثر من اهتمامى بروايات أخرى قد يقرؤها الدارس بعين العلم فيجزم ، أو يسمعها المؤرخ باذن التحقيق فيبرم ، وينسيه عالمه الواقعى ما وراءه من عوالم أخرى لانسأ آخرين ، قد تمثلوا شخصية « أم الرسول » كما شأنت قلوبهم المحبة ، وكما رسمته لهم قواهم الفنية وطاقتهم التعبيرية وتأملاتهم

الروحية ، فقدموا لنا بذلك كله صورة « آمنة » فى نفوسهم ، وفسروا بذلك تاريخ الحياة كما فهموه وأدركوه وما أحسب المؤرخ الذى وهب حياته كلها للدرس المحقق ، يستطيع أن يجرد شخصية « آمنة » من كل هذا ، أو يزعم لنفسه أو للناس أنه قادر على أن يفهمها حق الفهم من غير أن يعرف كيف نظر أهل عصرها اليها ، وكيف تمثلها أبناء جيلها ، ثم كيف تنقلت صورتها فى الأدهار وسارت على الأجيال

فأبناء « آمنة » فى زوجيتها ، وحملها ، ووضعها ، وأمومتها - تلك الأنباء التى يحسبها بعض المحدثين من أساطير الأولين - تصور للمؤرخ حياة هذه الأم فى نفوس جيلها ومخيلة الذين جاءوا بعدها ، وبهذا التصوير ، يجد تفسيرهم لعناصر حياتها ، ومنه ينتزع تحليلهم النفسى لشخصيتها وأنى للمؤرخ أن يستغنى عن ذلك فيما يعانى من تاريخ محقق ؟



وأرانى الآن قادرة على أن أبسط منهجى فى فهم سيرة « آمنة بنت وهب » بعد أن هيات القارئ لفهم هذا المنهج : لقد بدأت أول ما بدأت بدرس بيئتها وبيتها ، وتتبع الأصول البعيدة والملاح العامة للحياة العربية ، وحياة المرأة حينذاك ، لأجد من ذلك ما يطمئن إليه الحق التاريخى فى حياة « آمنة بنت وهب »

وثانى الأمرين مما عمدت إليه فى هذه السيرة ، هو

ما يحلو لكثير من الدارسين - والمستشرقون منهم بخاصة - أن يسموه أساطير وأقاصيص ، ذلك أنى وجدت فى تلك الأساطير ، صورة أحداث التاريخ فى نفوس الذين عاشوا فى بيئة أم الرسول ، أو اتصلوا بها وتمثلوها . وكان هذا الفهم النفسى للأحداث ، معيناً لى على تبين شخصية «آمنة» وتقديرها تقديراً يكشف عن ملامحها ويفسر آثارها . كما كان الذى روي من أحلام «آمنة» ورؤاها ، أو تصوره من أمانيتها وآمالها ، صوراً نفسية بشرية ، تمثلها المتمثلون لأمويتها وحيويتها ، وتلك مادة للتاريخ الحق ، وإن بدت فى صورة الخيال المجنح ، والسرد القصصى الذى لا أراه يجور على الحقيقة بحال



أنوثة وامومة

« تخيروا لنطفكم
فان العرق دساس »

حديث شريف

لا نرى أن نمضى فى الحديث عن احدى صانعات التاريخ،
قبل أن نلم بمكانة الام فى الجزيرة الى عهد « آمنة »
ذلك أنه قد شاع فينا أن المرأة فى الجاهلية قد كانت -
فى خير حالاتها - متاعا للرجل ، وأنها عانت من صنوف
الاستعباد والاستبداد ما أنقذها منه الاسلام . وعلى الرغم
مما نقل اليينا من أخبار تدل على ما كان للمرأة العربية فى
الجاهلية من مكانة مرموقة وما أثر لم تضع مع السنين
والقرون ، الا أن تلك الأخبار لم تدع فينا كما ذاعت
الأخبار الأخرى التى تتحدث عن وأد البنات وانتقال
الزوجات بالميراث من الآباء الى الأبناء ، وما الى ذلك من
مظاهر الضعة والهوان



ولا نقول اننا سنحاول هنا أن ننصف المرأة العربية فى
تلك العصور القديمة ، فالحق أن المؤرخين والرواة القدامى

لم يضمنوا عليها بتسجيل ما تناقلته الأخبار من مآثرها ،
وكل عملنا هنا ، أن نختار من ذاك الذى سجلوه ، بعض
ما يصحح فكرتنا الشائعة عن الانوثة والامومة فى الجزيرة
قبل الاسلام ، وأن نضع الى جانب الروايات المشهورة عما
لحق بها من ظلم وعسف وهوان ، بعض ما تحدثوا به عن
منزلتها الرفيعة ، وعزتها التى صينت بالدماء ، وافتديت
بالمهج والارواح ٠٠

ويعنينا هنا بوجه خاص ، ما اختص بالامومة أو كان
منها بسبب ، لنلتمس منه ضوءا يكشف عما « لآمنة » من
فضل فى انجاب خاتم الرسل والانبياء ، وما كان لها من
أثر فى تكوين ولدها الخالد الذى قال :
« تخيروا لنطفكم فان العرق دساس »



يروع الذى يتصل عن قرب بما كتب الاقدمون عن
الجزيرة ، حرص العرب فى جاهليتهم البعيدة على كرم
النسب وطهارة الارحام ونقاء الاصول . قال حكيمهم
« أكثم بن صيفى » :

« لا يفتننكم جمال النساء عن صراحة النسب ، فان
المناكح الكريمة مدرجة الشرف »
وقال شاعرهم :

وأول خبث الماء خبث ترابه
وأول خبث القوم خبث المناكح

ونقل « أبو عمرو بن العلاء » عن أحدهم :
« لا أنزوج امرأة حتى أنظر الى ولدى منها » . قيل له :
« كيف ذاك ؟ » قال : « أنظر الى أبيها وأمها فانها تجر
بأحدهما »

وقال قائلهم لبنيه :

« قد أحسنت اليكم صفارا وكبارا وقبل أن تولدوا » .
قالوا : « وكيف أحسنت الينا قبل أن نولد ؟ » . فأجاب :
« اخترت لكم من الأمهات من لا تسبون بها »
ومثله ما أنشده « الرياشي » :

وأول احسانى اليكم تخيرى
لما جدة الأعراق باد عفافها

ولعل هذا الحرص منهم على كرم النسب ، يفسر لنا
كراحتهم للسبأ

حدثوا أن « فاطمة بنت الخرشب » رمت بنفسها من
الهودج حين أسرت ، فماتت لساعتها وهى تردد المثل :
« المنية ولا الدنية »

وربما تزوج الرجل بسبيته وأنزلها من نفسه وقومه
أكرم منزلة ، فلم ينف ذلك عنها مرارة الأسر . من ذلك
ما رووه من أن رجلا من العرب استبى امرأة فولدت له
سبعة بنين ، ثم قالت له يوما : « أزرني أهلى ليذهب عني
ذل السبأ »

ففعل ، فأبت أن تغادرهم مع فرط تعلقها بزوجهما
وثنائها عليه

وكذلك فعلت « سلمى الغفارية » زوج « عروة بن الورد العبسى » وكان شاعرا بطلا كريما ، أصاب « سلمى » يوم خرج « بنو النضير » يريدون « خيبر » ، بعد أن أجلاهم الرسول صلى الله عليه وسلم عن « المدينة » • وكانت « سلمى » ذات جمال ، فأعتقها « عروة » وتزوجها وأقامت عنده بضع عشرة سنة ، ولدت له فيها أولادا ، وحلت من نفسه وقلبه أعز مكان ، اذ كان شديد الحب لها والحرص على ارضائها ، لكن ذلك لم ينسها مذلة السباء ، فقالت له يوما : « ألا ترى ولدك يعيرون بأمرهم ويسمون بنى الأخيذة ؟ » قال : « فماذا ترين ؟ » قالت : « أرى أن تردنى الى قومى حتى يكونوا هم الذين يسلموننى اليك ! »

فاستجاب لها وهو لا يشك فى أنها سعيدة راضية ، صادقة الرغبة فى العيش معه

وخرج بها فحج ثم عرج على أهلها زائرا فتحايلوا عليه بالخمى حتى رضى أن يخبروها بين الإقامة فيهم والعودة معه ، فاختارت « سلمى » أهلها وهى تقول :

« يا عروة ، أما انى لا أقول فيك - وان فارقتك - الحق : والله ما أعلم امرأة من العرب ألفت سترها على بعل خير منك وأغض طرفا وأقل فحشا وأجود يدا وأحمى لحقيقة • لكن ، ما مر علىّ يوم منذ كنت عندك الا والموت فيه أحب الىّ من الحياة بين قومك ، لأنى لم أشأ أن أسمع امرأة من قومك تقول : قالت أمة عروة كذا وكذا • والله لا أنظر الى غطفانية أبدا ، فارجع راشدا الى ولدك وأحسن اليهم »

فانصرف عنها حزينا حسيرا ، وهو يقول قصيدته التى مطلعها البيت المشهور :

سقوني الخمر ثم تكفوني (١)
عادة الله من كذب وزور

ولا أكاد أعرف - فيما قرأت - أمة قديمة بلغت كرامة
الأمومة عندها ما بلغت عند العرب ، وقد روى
«المبرد» في «الكامل : ج ١ ، ص ٢٥١» أبياتا للسليك بن
السلكة ، تعبر عما كان يرهقه ويضنيه من وجود اماء قد
أذهن الرق وأزرى بهن التبذل ، مع قصور يده عن افتدائهن
جميعا ، كرامة لأمه - وكانت جارية حبشية - فذلك قوله :

أشباب الرأس أنى كل يوم
أرى لى خالة بين الرحال
يشق على أن يلقين ضيما
ويعجز عن تخلصهن مالى



ولابناء العقائل الكريما حديث - أشبه بالقصص - عن
حرصهم على عزة الأمومة وصيانتها بالمهيج والأرواح ، ولعله
يكفيها هنا أن ننقل مثلا واحدا ، ما رواه صاحب (الأغاني)
من أن « عمرو بن هند : ملك الحيرة » قال يوما لجلسائه :
« هل تعلمون أحدا من العرب تأنف أمه من خدمة أمي؟ »
فقالوا : « نعم ! أم عمرو بن كلثوم » قال : « ولم ؟ » .
قالوا : « لأن أباه مهلهل بن ربيعة ، وعمها كليب وائل
أعز العرب ، وبعلمها كلثوم بن مالك أفرس العرب ، وابنها

(١) الأغاني ج ٣ ، ص ٣٨ ، طبعة دار الكتب

عمرو بن كلثوم وهو سيد قومه وليث كتيبتهم »

فأرسل « عمرو بن هند » الى « عمرو بن كلثوم » يستزيره ، ويسأله أن تزور أمه أمه ، فأقبل « ابن كلثوم » من الجزيرة في جماعة من بنى تغلب ، وأقبلت « ليلى » في ظعن منهم

وأمر « عمرو بن هند » برواقه ف ضرب فيما بين الحيرة والفرات ، وأرسل الى وجوه أهل مملكته فحضرُوا ، ودخل « ابن كلثوم » رواق الملك ، وأدخلت « ليلى » الى « هند » في قبة من جانب الرواق ، وكان بين الاثنين صلة نسب

قالوا : وقد كان عمرو بن هند أوصى أمه أن تنجى الخدم اذا دعا بالطرف ، وتستخدم « ليلى » ، فلما فعل قالت « هند » لزائرتها بعد أن اطمأن بها المجلس :

— ناوليني يا ليلى ذلك الطبق

فقالت « ليلى » في نفور :

— لتقم صاحبة الحاجة الى حاجتها ..

فأعادت « هند » عليها وألحت ، واذا ذاك صاحبت ليلى :

« واذا له يا لتغلب ! »

فسمعها ابنها فثار الدم في وجهه وانتفض انتفاضة المحموم وقال :

« لا ذل لتغلب بعد اليوم ! »

ثم نظر حوله فاذا سيف معلق بالرواق ليس هناك سيف غيره ، فوثب اليه وأطاح به رأس « ابن هند » ، ونادى في بنى تغلب فانتهبوا ما في الرواق

والروايات تقول انه أنشد يومئذ معلقته المشهورة
مرتجلا ، وفيها يصيح بالملك :

أبا هند فلا تعجل علينا
وأنظرنا ، نخبرك اليقيننا
بأننا نورد الرايات بيضا
ونصدرهن حمرا قد روينا
ألا لا يجهلن أحد علينا
فنجهل فوق جهل الجاهلينا
بأى مشيئة (عمرو بن هند)
تطيع بنا الوشاة وتزدرينا ؟
تهددنا ، وأوعدنا ، رويدا !
متى كنا لأمك مقتويننا ؟
وهو القائل أيضا :

على آثارنا بيض حسان
نحاذر أن تقسم أو تهونا
إذا لم نحمهن فلا بقينا
لشيء بعدهن ولا حيننا

ثم لم تكتف تغلب برأس الملك ثمنا لكرامة السيدة الأم،
بل قام « مرة بن كلثوم » - أخو عمرو - بعد ذلك وقتل
ولد النعمان ، وأخاه ، ليطفىء جذوة من الغضب هاجها
تعمد المهانة لأمه

وظلت « تغلب » تعظم قصيدة « عمرو » ويرويها صغارهم
وكبارهم على تتابع الأجيال ، كما ظل مقتل « عمر بن هند »
مفخرة لهم يباهون بها ما عاشوا ...

قال الفرزدق :

* قوم هم قتلوا ابن هند عنوة *

وقال صريم التغلبي :

لعمرك ما « عمرو بن هند » وقد دعا

لتخـدم « ليلى » أمـه بموفق

فقام « ابن كلثوم » الى السيف مصلتا

فأمسك من ندمانه بالمخنق

وجلله « عمرو » على الرأس ضربة

بنى شطب صافي الحديد رونق

وقال « الأخطل التغلبي » لجرير يفخر « بعمرو ومرة :

ابنى كلثوم » :

أبنى كليب أن عمى اللـذا

قتـلا الملوك وفككا الأغـلا

الى مثل ذلك الحد ، بلغت غيرتهم على الأمومة ، وما تمنع أن

تكون حادثة « ليلى أم عمرو » من أقاصيص السمارواضافات

الرواة ، لكنها لن تفقد - فى أى وضع رضيناها لها -

دالتها الاجتماعية على ما كان من عزة الأمومة فى الجاهلية



وقد شهد الرواة - الى جانب هذا - للام العربية

بالطموح ، ولم يجحدوا ما كان لها من نصيب فى عظمة

بنيتها، فهم يذكرون - فيما روى « القالى » بالامالى ج ٢/ ١١٨

طبعة بولاق - أن « أم الفضل بنت الحارث » كانت ترقص

ولدها « عبد الله بن عباس » قائلة :

تكلت نفسي وثكلت بكــــرى
ان لم يسد فهرا وغير فهــــر
بالحسب العد وبذل الوفــــر
حتى يوارى فى ضريح القبــــر

وأن « ضباعة بنت عامر » كانت ترقص ولدها « المغيرة
ابن سلمة » بقولها :

نمى به الى الذرى هــــشام
قــــوم وآباء له كــــرام
جحاجح ، خضارم ، عــــظام
من آل مخزوم ، هم الاعــــلام
الهامة العلياء والسنام

ويعترفون بأن « حاتما الطائي » انما ورث الجود عن
أمه ، ويروى صاحب الاغانى (٩٣/١٦) أنها كانت
لا تبقى على شىء ، فلما رأى اخوتها اتلافها أمسكوا عنها
مالها ، حتى اذا ظنوا أنها وجدت ألم ذلك ، أعطوها طائفة
من ابلها، فجاءتها امرأة من « هوازن » تسألها على ما تعودت
أن تفعل كل سنة ، فقالت لها : دونك هذه الابل فخذوها ،
فوالله لقد عضنى الجوع فلن أضيع سائلا :

لعمرك قدما عضنى الجوع عضــــة
فأليت ألا أمنع الدهر جائعا
فقلوا لهذا اللائمى : اليوم أعفى
وان أنت لم تفعل ، فعض الأصابع
فماذا عساكم أن تقولوا لاختكم
سوى عدلكم أو عدل من كان مانعا ؟

وماذا ترون اليوم الا طبيعة
فكيف بتركى يا ابن أم الطبايعا ! ؟



كذلك أنصفها الذين كتبوا عن حياة العرب فى الجزيرة،
فشادوا بذكر « المنجبات » من عقائل العرب ، مثل :
- فاطمة بنت الحرشب : أنجبت الكملة لزياد العبسى ،
وهم : ربيع الكامل ، وقيس الحفاظ ، وعمارة الوهاب ،
وأنس الفوارس

قيل انها سئلت يوما : أى بنيك أفضل ؟
فبان عليها التردد وهى تقول فى حيرة :

« الربيع ، لا ٠٠ بل قيس » ثم هتفت : « ثكلتهم ان كنت
أدرى أيهم أفضل ! هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها »
- وأم البنين، ابنة عامر بن عمرو ، زوج مالك بن جعفر .
أنجبت له : ملاعب الاسنة، وطفيل الخيل، وربيع المقترين،
ونزال المضيف ، ومعوذ الحكماء !

- وخبيثة بنت رياح الغنوية ، أنجبت ثلاثة عشرة :
خالدا ، ومالكا ، وربيعا

- وعاتكة بنت هلال السلمية ، أنجبت لعبد مناف بن
قصى : هاشما ، وعبد شمس ، والمطلب

- وريحانة بنت معديكرب الزبيدى - أخت عمرو بن
معديكرب - كان « الصمة بن عبد الله الجشمى » سبأها ثم
تزوجها فولدت له دريدا ، وعبد الله ، وعبد يغوث ، وقيسا ،
وخالدا

واياها عنى أخوها « عمرو » بقوله :
أمن « ريحانة » الداعى السميع
يؤرقنى وأصـحـابى هـجـوع
إذا لم تسـتـطـع شـيئـا فدعه
وجـاوزه الى ما تسـتـطـيع

وليس ببعيد عن مظاهر مجد الأمومة ، وما كان من
اعزازهم لها ، أن عددا غير قليل من قبائل العرب وبطونها ،
نزع الى أمه وآثر الانتساب اليها ، كبنى « الحنف » - وهى
ليلى بنت عمران القضاعية ، زوج الياس بن مضر - وعنهما
انشعب كثير من بطون العرب ، كهذيل ، وكنانة ، وأسـد
وأم « الحنف » ، هى « ضرية بنت ربيعة بن نزار » التى
ينسب اليها « حمى ضرية »

ومن القبائل التى انتسبت الى أمهاتها : بنو جديلة
« بنت مدركة بن الياس » واليها تنتسب قبيلة عدوان
وكذلك بنو جندلة ، وبنو بجيلة ، وبنو العبيدية ،
ورقاش ، ومزينة ، وعاملة ، وعفراء ، وباهلة ، وسلول
ومن الملوك من نسبوا الى الأم ، كعمرو بن هند ،
والمناذرة بنى « ماء السماء » وهى ماوية بنت عوف بن جشم
وكثيرا ما سمعنا الشعراء يمدحون كبار الرجال
بأمهاتهم ، قال « حذيفة بن غانم » أخو بنى عدى بن كعب
ابن لؤى ، يبكى « عبد المطلب بن هاشم » ويذكر فضل
قصى « على قريش » :

ولا تنس ما أسدى « ابن لبنى » فانه
قد اسدى يدا محقوقة منك بالشكر

وأملك سر من خزاعة جـوهر
إذا حصل الانساب يوما ذوو الخبر
الى سبأ الأبطال تنمى وتنمى
فأكرم بها منسوبة فى ذرا الزهر
وقال « بشر بن أبى حازم » يمدح « أوس بن حارثة بن
لام » :

الى أوس بن حارثة بن لام
ليقضى حاجتى ، ولقد قضاهـا
فما وطىء الحصا مثل « ابن سعدى »
ولا لبس النعال ولا احتذاها
ولهذه الأبيات قصة بالغة الدلالة على اعتراف القوم بما
للأم من أثر فى صنع أبنائها وتوجيههم . حدثوا أن قوما
أغروا « بشر بن أبى حازم » بهجاء « أوس » ، فأخذ يتلقفه
بلسانه حتى ضاق به فبعث من يشتريه من مولاة بالغـا
ما بلغ ثمنه ، فلما جرى به خيره بين قطع لسانه وجبسه
حتى يموت ، أو قطع يديه ورجليه وتخليه سبيله
ثم دخل « أوس » على أمه « سعدى » فكرهت رأيـه ،
وأمرته أن يحسن عطاءه ففعل ، فملا « بشر » عراض الآفاق
بمدائحـه فى « ابن سعدى »



ولم ينسوا أن يذكروا للمرأة مشاركتها فى جليل
الأحداث ، من ذلك ما رواه « ابن هشام فى السيرة » :
١٣٩/١ « عن دور المرأة فى حلف المطييين الذى كان بين

بنى عبد مناف ومن انضموا اليهم فى خلافهم مع بنى عبد الدار بعد وفاة « قصي بن كلاب » ، فلقد أخرجت نساء بنى عبد مناف جفنة مملوءة طيبا ، فوضعها بنو عبد مناف لأخلافهم فى المسجد عند الكعبة ، فغمس القوم أيديهم فيها ثم مسحوا بها الكعبة توكيدا على أنفسهم ألا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضا

وقيل ان التى أخرجت لهم الجفنة ، هى « أم حكيم البيضاء : بنت عبد المطلب ، عمّة رسول الله وتوأمة أبيه »



وأكثرنا يعرف للعرب حرصهم المفرط على الانساب وولعهم بذكرها من قديم ، الى حد أن صار النسب عندهم علما يعنى به الحفاظ وتؤلف فيه الكتب ويشتهر به نفر من الذين وعوا أنساب العرب ، كجبير بن مطعم بن عدى وقد قيل انه « من أنسب قريش لقريش وللعرب قاطبة » ومثل « أبى بكر الصديق » الذى « كان أنسب العرب »

نعرف هذا ، لكننا حين يذكر النسب ، يتجه تفكيرنا - غالبا - الى الآباء والأجداد دون الأُمّهات والجدات ، مع أن نسابى العرب لم يغفلوا عن ذكرهن ، وتكفى المأمة يسيرة عاجلة بأحد كتب الانساب ، لكى ندرك مدى حرص النسابين على ذكر الأُمّهات

وهذه العناية غير مستغربة من قوم كان لهم مثل ذاك الحرص على النسب ، والاعتزاز بالاصالة ، والمباهاة بالحنولة ظل ذلك فيهم الى ما بعد الاسلام بقرون ، حتى لتسمع

« جرير بن عطية » يمدح « هشام بن عبد الملك بن مروان »
قائلا :

فما الأم التي ولدت قريشا
بمقرفة النجار ولا عقيم
وما قرم بأنجب من أبيكم
وما خال بأكرم من تميم

قال ابن هشام (١) : « يعنى بالأم ، برة بنت مر ، أخت
تميم بن مر ، أم النضر - والنضر هو قريش في قول ،
ويقال بل فهر بن مالك هو قريش »
وما من قارئ يتتبع مساق (النسب الزكي) في السيرة،
الا عجب لعنايتهم البالغة بذكر الامهات مهما ترتفع
الأصول وتبعد

وما هكذا يكون الأمر مع ناس أهدروا المرأة فيهم
وأنزلوها منزلة الهوان ، ولا هكذا يكون سلوك قوم ألفوا
أن يثدوا بناتهن ، وأن يرث الابن الأكبر زوجة أبيه دون
أن يكون لها من أمرها شيء



على أنا لا نريد أن ننفي شيئا من هذا الذي قيل عما لحق
بالمرأة العربية - في بعض الحالات - من ظلم أو استبداد،
لأننا ان فعلنا ، نكون كهؤلاء الذين أنكروا ما ظفرت به
العقائل الكريمات من عزة ، وما وصلن اليه من مكانة
ثم هذا « القرآن الكريم » يقسم بالموءودة اذا سئلت ،

(١) السيرة ٩٦/١

بأى ذنب قتلت • وهذه كتب التاريخ العربى حافلة بما كان
من ذاك ، لكننا نعرف أن ذلك لم يكن عاما بين العرب ، ثم
نكره أن ننظر الى المرأة العربية من جانب واحد ، بل لعلنا
إذا قسنا ما بلغنا من أخبار تكريمهن وتقديرهن والاعتراف
بماثرهن، الى ما روى عن مظاهر هوانهن والاستبداد بهن،
لرجحت الأولى رجحانا ظاهرا ، وبخاصة اذا قدرنا ظروف
البيئة العربية فى تلك الجاهلية القديمة ، قبل أن تسمع
الدنيا عن (نهضة المرأة) و (حقوق النساء) بقرون ودهور



امهات الانبياء

بقي هناك أروع ما يقال عن الانوثة والامومة ، فى كتاب
« آمنة أم النبى العربى »

بقي أن نرجع الى الأديان السماوية الكبرى لنرى
(الامهات) فى حيوات الانبياء الأربعة :

اسماعيل ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ، عليهم جميعا
أزكى الصلاة والسلام

لقد يبدو من عجيب الاتفاق أنهم — عليهم السلام — قد عهد
بهم فى طفولتهم الى الامهات وحدهن دون مشاركة
الآباء ، فلم تقم الأم بدورها الطبيعى فقط ، بل عوضت
الى جانبه فقد الأب أو غيابه ، غير انا نرى الأمر طبيعيا
لا غرابة فيه ولا مصادفة ولا اتفاق ، اذ الامومة فى عاطفتها
الجياشة وايشارها الرائع ، أقرب الى أن ترعى أصحاب
الرسالات الدينية التى تقوم على الروحانية ، وما كانت
السماء لتجد هذه الصلة ، ولا كانت الأديان التى حملها
أبناء صنعتهم أمهاتهم ، بالتى تؤخر مكان الأم أو تضعها
فى غير موضعها العتيد : « سنة الله التى فطر الناس عليها ،
لا تبديل لحلق الله »

أم اسماعيل

« ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى
زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ،
فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم ، وارزقهم
من الثمرات لعلهم يشكرون »
(قرآن كريم)

هذه (التوراة) تروى لنا قصة « هاجر أم اسماعيل »
فى تفصيل مسهب ، وهذا (القرآن) يشير اليها فى مواضع
شتى على أسلوبه المختار فى القصص . ويا لها من قصة
الأمومة فى أروع مواقفها وأعنف مشاعرها ! لقد أراد الله
أن يؤثر هذه الأم برعاية « اسماعيل » الوليد وانقاذه من
الهلاك ، فتركه لها وحدها فى واد قفر غير ذى زرع ، كى
تكون لهفتها على الصغير والالم الذى ذاقته حين رأته يكابد
حرقة الظمأ ، ومساعها المثير فى سبيل نجاته ، حديث
التاريخ وعبرة الدهر ، وصورة تخلد فيها الأمومة وتتقدس
آلامها الى حيث تغدو عبادة وصلاة !
ومن « هاجر » ؟

أمة ضعيفة لا حول لها ولا طول ، جاءت بها « السيدة
سارة : زوجة ابراهيم » الى فلسطين ، بعد رحلتها المشهورة

الى مصر فى صحبة زوجها ، عندما خرج من بلاده مهاجرا
بدينه كافرا بقومه وبما يعبدون من دون الله

وكانت السيدة « سارة » عاقرا ، وقد طال عليها الأمد
وهى عاجزة عن أن تهب زوجها ولدا ، ثم ٠٠٠ بدا لها أن
تهب زوجها تلك الجارية المصرية ، لعله يسكن الى احدى
الراحتين !

وحملت « هاجر » فهاج ذلك فى سيدتها أقسى ما فى
حواء من غيرة ، وخيل اليها أن أمتها صارت تنظر اليها
نظرة فيها مباهاة ورتاء مذل ، فأقبلت على زوجها عاتبة
شاكية تقول :

— أنا دفعت اليك جاريتى ، فلما حملت ترفعت على !

فرد عليها ملاطفا :

— هى جاريتك ، تصنعين بها ما تشائين !

لكن « سارة » لم تشأ أن تصنع شيئا قبل أن تبذل
محاولتها الأخيرة فى احتمال الموقف ، حتى اذا وضعت
« هاجر » مولودها ، نفذ صبر السيدة وغلب احتمالها ،
فأقسمت ألا يؤويها وجاريتها ستقف

ثم ما زالت بزوجها حتى انطلق ذات يوم ميمما شطر
الجنوب ، تتبعه « هاجر » وبين ذراعيها وليدها « اسماعيل »
وانتهى بهم المسير عند « مكة » وهى اذ ذاك مقفرة خلاء ،
لا يكاد يلم بها سوى نفر من الرحل ، وقوم من العمالق
كانوا يعيشون خارجها ويتنقلون من حين الى حين ، التماسا
لماء أو انتجاعا لمرعى

وعند ربوة حمراء كانت قائمة هناك حيث أطلال البيت العتيق ، ترك ابراهيم « هاجر » وولدها ، وترك لها جراب تمر وسقاء فيه ماء ، وأمرها أن تتخذ لها عريشا ، ثم هم بالرجوع من حيث جاء ، فارتاعت « هاجر » من وحشة البرية ، وتضرعت الى « ابراهيم » ألا يدعها وولدهما في ذاك القفر المرهوب ، لكنه أشاح بوجهه عنها لا يلتفت ولا يجيب ، كأنما كان يخشى أن تخونه عاطفته أمام الأم الوالهة الحيرة ، أو تثور أبوته رحمة بابنه الوحيد ، الذي نبذه وأمه بالعراء

وأعادت « هاجر » سؤالها :

« أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه انس ولا شئ » وهو منصرف عنها منطلق فى سبيله لا يلوى على شئ ، حتى اذا كاد يتوارى خلف منحرج الوادى ، سمع صوتها الضارع يسأل فى وهن ولهفة :

— الله أمرك بهذا ؟

أجاب دون أن يلتفت :

— أجل

فقالت « هاجر » فى استسلام خاشع :

— اذن فالله لا يضيعنا ...

وأطرقت صامتة ، فلم تر « ابراهيم » وقد رفع وجهه الى السماء حين غيبته ثنية الوادى ، وابتهل الى الله فى توسل :
« ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من

الناس تهوى اليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون-
ربنا انك تعلم ما نخفى وما نعلن ، وما يخفى على الله من شيء
فى الارض ولا فى السماء »

ثم استأنف مسيره عائدا الى زوجه « السيدة سارة »



وأقبلت « هاجر » على ولدها تستمد منه الانس والعزاء ،
وكادت تنسى به محنة الرق ومأساة الهجر ، وقد شغلت
بالنظر الى وجهه الحلو الحبيب ، فلم تشعر أول الامر
بوحدها الرهيبة فى البرية المقفرة ، ولم تدرك حق الادراك
قسوة موقفها ذاك فى الوادى الأجرد ، بين الصـخـور
الكالحة والجبال الغبراء

حتى نفدت مئونتها الضئيلة ، وبدأ الظمأ يناوش
الصغير العزيز ، فهبت مذعورة تبحث له عن قطرة ماء ..
وحين أعيها أن تجد هذه القطرة ، بدا لها أن تصعد
الى عل ، فنظرت أى الجبال أدنى من الأرض ، فاذا
« الصفا » قريب منها ، فقامت عليه ثم استقبلت الوادى
تنظر : هل ترى أحدا ؟ وتسمعت : هل تؤنس صوتا ؟
فلما لم تجد الا الوحشة والصمت ، أتت « المروة » مهرولة
تسعى سعى المجهد ، وصعدت عليها ترى أثرا من حياة ،
ولا أثر ..

وظلت هكذا تسعى مهرولة بين « الصفا » و « المروة »
سبع مرات حتى نال منها التعب والاعياء ، فتهاتوت على

الرمال الى جانب ولدها تنتظر المصير الفاجع مستسلمة ،
شبه يائسة ..

لكنها لم تلبث فى مكانها طويلا ، فلقد كان لهاث ولدها
الظامى يمزق قلبها ويفرى كبدها ، وكان مرآه والحياة
تتسرب منه وتخبو رويدا رويدا ، أقسى من أن تحتمله
أمومتها ، فجمعت كل ما بقى لها من قوة ، وزحفت بعيدا
عن ولدها المحتضر ، ثم غطت وجهها بلفاعها وهى تقول :
« لا أنظر موت الولد »

وأمسك الكون أنفاسه ، ولم يبق من صوت سوى لهاث
المحتضر وأنين أمه الملتاعة ، يتردد صداهما فى البلقع
القفر ، مختلطا بعواء وحوش الفلاة ، وسعار السباع
الجائعة المحومة على المكان ، كأنها ترقب الحفقة الأخيرة فى
فريستها المنتظرة

ثم ... كانت النجاة

انبثق ماء « زمزم » فهرعت « هاجر » نحوها وهى تحس
موجة طارئة من القوة والحيوية قد تدفقت فى كيانها ،
وأقبلت ترتوى ، وتسقى ولدها ...

ودبت الحياة فى الوادى الأجرد ..

قالوا : « ومرت رفقة من «جرهم» مقبلة من طريق «كداء»
تريد الشام ، فنزلوا فى أسفل مكة فراوا طيرا فقالوا : ان
هذا الطير لحائم على ماء ! لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء ..

« وأرسلوا دليلهم ، فعاد يحدثهم عما رأى ، وتبعوه حتى
أشرف بهم على الماء ، فاذا هناك هاجر وولدها . فقالوا لها :

ان شئت كنا معك فآنسناك ، والماء مأوك
» فأذنت لهم فنزلوا معها ، وهم أول سكان « مكة »



وخلدت « هاجر : الأمة المنبوذة » صورة مؤثرة مثيرة
للأمة في حنوها وآلامها وهمومها ...

وعاش ولدها اسماعيل - ذاك الذي رعته وحدها حين
تركه أبوه في البلقع القفر - ليتلقى مع أبيه رسالة السماء:

« وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل ، أن طهرا بيتي
للطائفين والعاكفين والركع السجود - واذ قال ابراهيم :
رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن
منهم بالله واليوم الآخر ، قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم
أضطره الى عذاب النار وبئس المصير - واذ يرفع ابراهيم
القواعد من البيت واسماعيل ، ربنا تقبل منا انك أنت
السميع العليم - ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة
مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا ، وتب علينا انك أنت التواب
الرحيم - ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك
ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، انك أنت العزيز
الحكيم »

أم موسى

« ٠٠ وأوحينا الى أم موسى أن
أرضعيه ، فاذا خفت عليه فآلقيه
في اليم ولا تخافي ولا تحزني ، أنا
رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين »
(قرآن كريم)

لا يذكر لنا « القرآن الكريم » شيئا عن والد «موسى» ،
وانما يخص بالذكر أمه ، ويكل إليها أمر حمايته وليدا
ورضيعا ، حين استبد فرعون ببني اسرائيل فأذلهم
واستعبدهم وراح يسومهم سوء العذاب

وتقول الرواية (١) : انه رأى في منامه رؤيا أفزعته
« فدعا فرعون الكهنة والسحرة والمعبرين والمنجمين ،
فسألهم تأويل رؤياه فقالوا : يولد فى بنى اسرائيل غلام
يسلبك الملك ويغلبك على سلطانك ، ويخرجك وقرمك من
أرضك ، ويبدل دينك . وقد أظلك زمانه الذى يولد فيه »
فجن غضبه وقلقه ، وأمر بقتل كل غلام يولد فى بنى

(١) راجع (قصص الانبياء) للإمام العلى . ص ١٧٣ و ١٧٤ ط
السعيدية

اسرائيل ، وجند لذلك القوابل من النساء فى أنحاء المملكة
وولد «موسى» اذ ذاك خفية ، بعد أن ذبح فرعون فى طلبه
سبعين ألف ولد على ما يقولون (١) - فارتجفت أمه رعبا
وجزعا ، وأشفقت عليها القابلة فوعدها أن تكتم الأمر .
ويضيف بعض الرواة أنها - أى القابلة - لم تكد تنظر الى
الوليد حتى اهتز قلبها رحمة له وتعلقا به ، وأبى عليها أن
تسلمه الى الذبح

غير أنها ما كادت تنصرف من عند أم «موسى» حتى
أبصرتها عيون فرعون التى بثها فى كل مكان ، فاندفعوا
يقتحمون الدار وكادوا يظفرون بالوليد لولا أن لمحتهم أخته
«مريم» فهمست جازعة :

- أماء ، هذا الحرس بالباب !

وفى ذهول المفاجأة ، لفت الأم ولدها فى خرقه وألقته
فى جوف التنور ، دون أن تشعر بما تفعل ، فلم تكد تودعه
هناك حتى دخل الحراس ، فلم يجدوا سوى الأم بادية
السكينة والاطمئنان ، والى جانبها فتاتها تعنى بشؤون
الدار فى جد وهدوء

وسألها الحراس فى فظاظة :

- ما أدخل عليك هذه القابلة ؟

أجابت من غير أن تزايلها سكينتها :

- هى مصافية لى ، دخلت على زائرة

(١) العرائس للشعلبى : ١٧٥

فانصرفوا ، ودارت عيننا الـأم تبـحثان عن ولدها ، فاذا
صوته ينبعث من التنور ، فـهرعت اليه وأخرجته



وبدا جليـا أن اخفاء الصغير غير مستطاع الا الى حين ،
وأطـرقت الـأم مهمومة تفكر ، فأوحى الله اليها : « أن اقذفه
فى التابوت فاقدفيه فى اليم ، فليلقه اليم بالساحل يأخذه
عدو لى وعدو له »

واستجابـت الـأم لـوحى السماء ، فاتخذت تابوتا وجعلت
فيه قطنا ، ثم أرضعت وليدها وأرقدته فى التـابوت
وأحكمت عليه الغطاء ، وألقت به فى النيل ..

كيف كان شعورها اذ ذاك وهى تسلم فلذة كبدها بيدها
الى النهر ؟

أغفل كثيرون ممن تعرضوا للقصة ، تصوير موقفها ذاك
على ضفة النيل ، وقد تعلقـت عينها بالتابوت الذى يضم
الصغير الحبيب ، اذ تتقاذفه الأمواج وتمضى به بعيدا ..

على أن منهم من أدرك الموقف المؤثر ، حين غاب التابوت
عن بصرها ، وروعها الفراغ من حولها ، فتنبـهت فجأة الى
أنها ألقت ولدها بيديها فى اليم ، وكأن اشتغالها بالفرار
به من عذاب الطاغية ، قد صرفها عن التفكير فى أى شىء عدا
النـجاة ، حتى أدركت بعد فوات الاوان ، أنها خلصت
وليدها من سكنين الظالم ، لتلقى به الى أفواه الحيتان !

قال « الثعلبى ، فى (قصص الانبياء : ص ١٧٤) :

« فلما ألقته فى النيل وتوارى عنها ، أتاها الشيطان
فوسوس اليها ، فقالت فى نفسها : ماذا صنعت بابنى ؟
لو ذبح لواريته وكفنته ، وكان أحب الى من أن ألقيه بيدى
فى البحر وأدخله الى دواب البحر »

وانى لا تمثلها الآن وقد لبثت فى مكانها على الشاطئ
لا تكاد تقوى على مغادرته ، وقلبها يعدو فى أثر ذاك الذى مضى
... حتى افتقدتها ابنتها « مريم » فجاءت تلتمسها هناك ،
وقادتها فى رفق عائدة بها الى الدار ، حيث مضت الأم
المحزونة تطوف بأنحائها ، وتنادى الغائب العزيز ...
ثم أنزل الله سكينته عليها ، فأمسكت عبرتها وكتمت
لوعتها ، وانطوت على نفسها صابرة مستسلمة ، داعية
خاشعة



ومضت الأمواج « بموسى » حتى انتهت به الى روضة
عند قصر « فرعون » كانت مسـتـقى لجواريه ، فما لمح
التابوت حتى التقطنه وانطلقن به الى سيدتهن « آسية :
امراة فرعون » وفى حسابهن أن به كنزا من مال وجواهر
ثم فتح الصندوق ، فاذا الصغير الجميل يرفع الى «آسية»
وجها مشرقا بابتسامة وضيئة !
وانثنت تملأ عينيهما منه وقد أحست قلبها يتفتح له ،
كانما هو قطعة منها :
ولم يكن لها ولد ، فما أروعها هدية يقدمها القدر الى
أمومتها المحرومة ! !

فى هذا كانت تفكر ، حين أقبل الذباحون على جناحها ،
يطلبون الصبى
قالت آمرة :

- انصرفوا ، فان هذا لا يزيد فى بنى اسرائيل ...
ثم لما رأت ترددهم ، خفت من صرامتها وقالت :
- دعوا أمره لى ، فأنا آتى فرعون وأستوهبه اياه ، فان
فعل كنتم قد أحسنتم ، وان أمركم بذبحه فلا ألومكم ..
وجاءت « فرعون » فهتفت به :
« قرة عين لى ولك ، لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه
ولدا »

فكان جوابه :
- قرة عين لك ، أما أنا فلا حاجة لى فيه
ثم استدرك بعد لحظة :

- لا بل فليذبح ، فانى أخاف أن يكون هذا من بنى
اسرائيل ، وأن يكون هو الذى هلاكنا وزوال ملكنا على يده
فلم تزل « آسية » تكلمه وترجوه ، حتى وهبه لهما ،
وعادت به الى جناحها والدنيا لا تسعها من فرط غبطتها



وهناك فى (حى المنبوذين) ، كانت « أم موسى » تضع
يدها على قلبها الذى ما فتىء يخفق ملحا فى طلب النائى
الغالى

قالت لاخته :

- « قصيه » وتتبعى أثره ، هل تسمعين له ذكرا ؟ أحي هو أم قد أهلكته دواب البحر ؟

فخرجت « مريم » تلتمس أثر أخيها ، وسارت بحذاء النهر حتى حملتها قدماها الى قريب من قصر فرعون ، لتسمع هناك أن ربة القصر تبنت غلاما رضيعا ، يابى المراضع !

وحدثها قلبها أنه هو ، فظلت تحوم حول القصر فى حذر ولهفة وترقب ، حتى رأت جوارى « آسية » يخرجن فى التماس المراضع ، لعله يقبل ثدى احدهن

هنالك لاذت « مريم » بكل ما فى طاقتها من شجاعة كي تدارى مشاعرها وتكتم لهفتها ، وتقدمت الى القصر فى حذر ، ثم قالت لبعض من هناك ، فى صوت حاولت ألا ينم عن شيء مما كان يخالجهما :

- « هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ؟ »

فراب القوم ما سمعوا ، وأحاطوا بها يسألونها :

- ما نراك الا تخفين أمرا !

فأجابت فى ثبات :

- بل أردت أن أنصح لكم ..

قالوا :

- لعلك تعرفين أهله ، والا فما يدريك أنهم له ناصحون؟

فهزت رأسها قائلة :

- الأمر أبسط مما تظنون ! كل ما هناك أنى أعرف فيهم
الرحمة وطيب الخلق ، وما أشك فى أنهم يرحبون بحضانة
الصغير شفقة عليه ، وتقربا الى الملك ، والتماسا لبره !

وتبعوها الى حيث كانت « أم موسى » تجتر همومها فى
وحدتها القاسية ، خالية الذهن من أسعد مفاجأة تخطر على
قلب أم !

ولمحتة ، فأمسكت صيحة فرح كادت تنطلق من أعماق
قلبها المشوق فتتم عليها ، وأقبلت على الرضيع متجلدة
متماسكة ، فضمته الى صدرها فى رفق ، وألصقته ثديها ..
فما كان أشد عجب القوم الذين عرفوا اباء « موسى »
للمراضع جميعا ، اذ رأوه يلقف الثدي فى لهفة الظامى
يجد ريا !

ورضع حتى ارتوى ، وعاد رسل « آسية » اليها يصحبون
« موسى » وأمه ، ويقصون عليها ما رأوا من أمرهما
قالت فى غبطة :

- هلا مكثت عندي يا ظئر لترضعي ابني هذا الحبيب !
فأجابت الأم :

- بل ان شئت يا سيدتى صحبتته معى الى بيتى أرضعه
وأرعه ، فانى أخشى ان أنا هجرت بيتى وولدى ، ضاعوا
.. ولست بتاركهم أبدا ..

وقد يبدو عجيبا من « أم موسى » أن تقف هذا الموقف
من « امرأة فرعون » فتأبى أن تقيم فى القصر ظئرا لولدها ،
لكننا لا نعجب لذلك ، فلقد أدركت الأم أنها سيدة الموقف

ما دام ولدها قد أبى أن يرضع إلا من ثديها ، وانها لتعرف
تعلق « آسية » بالصغير ، فلماذا لا تصر على أن تعود به
الى دارها كي تروى به أشواق أمومتها فى اطمئنان ، بعيدا
عن جو القصر وغيونه وأرصاده ؟

لماذا لا تنجو به من رقباء قد يريهم حنوها الغامر على
الصغير ؟

لو أنها أقامت بالقصر ، فهى بين أمرين أحلاهما مرة :
اما أن تكبت عاطفتها الظمأى وتخنق مشاعرهما الطبيعية ،
كيلا يستريب القوم فى أمرها ، وذلك ما لا طاقة لأمومتها
به بعد الذى كان من عذاب الحرمان

واما أن تترك نفسها على سجيتهما ، فتدفع ولدها بيدها
الى المذبحة !

ثم انها قد رأت من رحمة ربها بها وبولدها ، ما يغريها
بأن تختار لنفسها وله المكان المطمئن فى دارها ، وفى ذلك
يقول « الثعلبى »

« وتذكرت أم موسى ما كان الله وعددها ، فتعاسرت على
امرأة فرعون ، وأيقنت أن الله سبحانه وتعالى منجز وعده »
ولم تجد « آسية » مفرا من اجابة الظئر الى طلبها حرصا
على حياة الوليد ، فأذنت لها فرجعت به الى بيتها ..

فذلك قوله تعالى : « ان فرعون علا فى الأرض وجعل
اهلها شيعة يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم
ويستحيى نساءهم ، انه كان من المفسدين ... »

و « أوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه

فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني ، انا رادوه اليك
وجاعلوه من المرسلين - فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا
وحزنا ، ان فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين -
وقالت امرأة فرعون : قررة عين لي ولك ، لا تقتلوه عسى أن
ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون

« وأصبح فؤاد أم موسى فارغا ان كادت لتبدي به لولا
أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين - وقالت لأخته :
قصيه ، فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون - وحرمنا
عليه المراضع من قبل ، فقالت : هل أدلكم على أهل بيت
يكفلونه لكم وهم له ناصحون ؟ - فرددناه الى أمه كي تقر
عينها ولا تحزن ، ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم
لا يعلمون - ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما
وكذلك نجزي المحسنين »

وقوله تعالى في سورة طه :

« ولقد مننا عليك مرة أخرى - اذ أوحينا الى أمك
ما يوحى - أن اقذفيه في التابوت فاقدفيه في اليم ، فليلقه
اليم بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له ، وألقيت عليك محبة
منى ولتصنع على عيني - اذ تمشى أختك فتقول : هل أدلكم
على من يكفله ، فرجعناك الى أمك كي تقر عينها ولا تحزن »
هكذا نزل الوحي على « أم موسى » وعهدت اليها السماء
بالمهمة الجليلة : مهمة انقاذ الوليد المدخر لاحدى الرسالات
الكبرى ، من المذبحة التي لم ينج منها غلام لبنى اسرائيل
اذ ذاك !

أم المسيح

« ٠٠ اذ قالت الملائكة يا مريم
ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه
المسيح عيسى بن مريم وحيها في
الدنيا والآخرة ومن المقربين »
(قرآن كريم)

وعيسى عليه السلام ؟

ما يذكر « القرآن » له أبا ، وانما هو « عيسى بن مريم »
كما دعاه كتاب الاسلام

ومن حق الامهات أن يفخرن بنسبة نبي المسيحية الى
أمه ، هذه الأم التي طهرها الله واصطفها على نساء العالمين
وقصة أمومة « مريم » كما روتها كتب السماء ، بالغة
التأثير والعنف ، فلقد تعرضت - عليها السلام - لاقسى
ما تتعرض له أنثى : نشأت في بيت دين وتقى ، لأب عالم
شيخ من كبار بني اسرائيل ، فلما حملت بها أمها نذرت لله
أن تهب ما في بطنها لخدمة الهيكل : « اذ قالت امرأة عمران :
رب انى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى انك أنت
السميع العليم - فلما وضعتها أنثى قالت انى وضعتها
أنثى - والله أعلم بما وضعت - وليس الذكر كالأنثى ،

وانى سميتها مريم ، وانى أعيذها بك وذريتها من الشيطان
الرجيم - فقبلها ربها بقبول حسن ، وأنبتها نباتا حسنا
وكفلها زكريا

ذلك أن أباه « عمران » مات وهى صغيرة ، فاختلف
القوم فيمن يكفلها من آله ، وألقوا على ذلك قرعة فكفلها
« زكريا » زوج خالتها

« ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، وما كنت لديهم
اذ يلقون أقلامهم : أيهم يكفل مريم ، وما كنت لديهم اذ
يختصمون »

وأفضت مريم صباها فى المحراب عابدة خادمة ، وفاء
بنذر أمها ، حتى اذا اختارها الله من دون النساء جميعا
ليودعها سره الأكبر ، بعث اليها فى خلوتها من بشرها
« بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم ، وجيها فى
الدنيا والآخرة ومن المقربين »

فما كادت تسمع البشرى حتى أخذ الروح منها أعنف
مأخذ ، ثم رفعت وجهها الى السماء وقالت :

« رب أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا -
قال : كذلك قال ربك هو على هين ، ولنجعله آية للناس
ورحمة منا ، وكان أمرا مقضيا »

واستسلمت لأمر الله المقضى وقدره المحتوم ، حتى
أحست الجنين يتقلب فى أحشائها ، ويا له من احساس
رهيب تعانیه عذراء طاهرة الذيل نقية السمعة ! هنالك
أشفقت من الفضيحة والعار ، فانتبذت بحملها مكانا

قصيا ، وأقامت في واد للرعاة هجره رعاته بمواشيهم
التماسا للكلا ، فلما جاءها المخاض اتكأت الى جذع نخلة
هناك ، ووضعت وليدها في مذود للماشية ، وهي تقول :
« يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا »



ثم كان ما لا بد أن يكون

أتت به قومها تحمله ، « قالوا : يا مريم لقد جننت شيئا
فريا ، يا أخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت
أهلك بغيا »

ولم يشفع لها ما عرف القوم من عففتها وطهرها ، ولا
أنقذها من لعنتهم ما بدا من ولدها الصغير من آيات بينات ،
بل رموها بالاثم وقالوا عليها « بهتانا عظيما » ، فتلفت للعة
صابرة ، وكابدت المحنة متجلدة لقضاء الله فيها وقدره ،
راضية بما هو أقسى من الموت في سبيل ولدها الموعود
بالمجد الأعظم

ويصف « الانجيل » ما عانت « مريم » من ذلك وصفا
مؤثرا ، ثم يحدثنا عن فرارها بابنها الى مصر لكي تنجو به
من الكيد والاذى ، حيث أقامت هناك اثني عشر عاما ،
ترعاه وتكده لتهيء له أسباب العيش ووسائل التعلم

ولم يجحد الكتاب المسلمون ذلك انكفاح الصابر ، بل
كتب « الثعلبي » في (عرائسه : ٤٠٢) : « فأقامت مريم

بمصر اثنتى عشرة سنة ، تغزل الكتان ، وتلتقط السنبل
فى أثر الحصادين ، وكانت تفعل ذلك والمهد فى منكبها ،
والوعاء الذى فيه السنبل فى منكبها الآخر »

كما يتحدثون عن عنايتها بتعليمه ، ويصفون كيف
أخذته صغيرا « وجاءت به الى الكتاب وأقعدته بين يدى
المؤدب (١) حتى أذن لها فعادت به الى « أورشليم » ليسجد
هناك حسب شريعة الرب المكتوبة فى كتاب موسى »

وسكنا فى قرية « الناصرة » حيث عاشت له الى أن بلغ
مبلغ الرجال ، وكانت هى التى لاذ بها عندما تلقى الوحى ،
وكاشفها بهوموم الكبار ، وتزود منها بالتأييد والتشجيع
وقد سجل لها (انجيل برنابا) ذلك الموقف الحالد ،
فذكر فى الفصل العاشر أنه لما بلغ « يسوع » ثلاثين سنة
من العمر ، صعد الى جبل الزيتون مع أمه ليجنى زيتونا ،
وهناك تجلت له الرؤيا وعلم أنه نبي مرسل الى بنى
اسرائيل ، فكاشف مريم أمه بكل ذلك قائلا لها : انه يترتب
عليه احتمال اضطهاد عظيم لمجد الله ، وانه - أى عيسى -
لا يقدر فيما بعد أن يقيم معها ويؤدى ما عليه من دين لها
بخدمتها

« فلما سمعت مريم هذا أجابت : يا بنى ، انى نبئت
بكل ذلك قبل أن تولد ، فليتمجد اسم الله القدوس
« ومن ذلك اليوم انصرف يسوع عن أمه ليمارس وظيفته

(١) التعلبي : ٤٠٢

الدينية » بعد أن صحبته مدى ثلاثين عاما ، هيأته خلالها
للدور العظيم الذى ينتظره
انصرف عنها ، ولكنهما خلدا معا على الأيام ، آية من
آيات الله ..

« وجعلنا ابن مريم وأمه آية »
« وجعلناها وابنها آية للعالمين »



وتأتى « آمنة بنت وهب » فى ختام هذا الموكب الرائع
لأمهات الأنبياء ، لتكون أم الرسول اليتيم : خاتم الرسل ،
والمبعوث بآخر رسالات السماء !



الكتاب الثاني

بليّة ووراثه

١ - البيت العتيق

٢ - بنو زهرة

البيت العتيق

« ٠٠٠ واذ بوأنا لإبراهيم مكان
البيت ألا تشرك بى شيئا ، وطهر
بيتى للطائفين والعاكفين والركع
السجود - وأذن فى الناس بالحج
يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين
من كل فج عميق - ليشهدوا منافع
لهم ويذكروا اسم الله فى أيام
معلومات ٠٠ »

(قرآن كريم)

سورة الحج - آية ٢٧ : ٢٨

لبيك اللهم لبيك !

هو الهمس الخالد ، رددت صدهاء الاتفاق المكية منذ ما لا
يحصى من السنين ، فاذا الملايين تنثال الى « البيت العتيق »
من كل فج ، ملبىة أذان « الخليل » فى الناس بالحج ،
ومستجيبة من بعده لدعاء النبى العربرى اليتيم ، الذى
وضعت « آمنة بنت وهب » فى دار « عبدالله بن عبد المطلب
ابن هاشم » ، منذ قرابة ألف وأربعمائة عام !

يا أذن الزمان الواعية ٠٠٠
ويا عين الدهر الباصرة ٠٠٠
أى السنة للعابدين سمعت ؟
وأى وجوه هنالك رأيت ؟
وأى ألوان من البشر شهدت ؟
وأى ألوية خفقت بين يديك ؟

وأى هامات انثنت لديك ، فى هذه البقعة من الأرض ،
وسط الوادى الأجرد الذى تحف به الصخور السوداء
والجبال الشم ، منذ جعل « البيت » هنالك مثابة للناس
وأمن ، وحرما وملادا ، يطمئن فيه الخائف ، ويأمن لديه
المروع ، ويحقق عنده الدم المهدر ، وتحمى فى حماه حياة
كانت اذ ذاك مستباحة فى شرعة الصحراء وبضراوة
البيداء ؟ !

« ان أول بيت وضع للناس ، للذى ببكة مباركا وهدى
للعالمين »



يا ذاكرة الزمان الحافظة !
عرفت الدنيا بيوتا وبيوتا ٠٠
ورأيت رسوما وطقوسا ، فى شرق الأرض ومغربها ،
وقديمها والحديث ٠٠٠
وشهدت حجاجا وزوارا ، وطائفين وعبادا ٠٠

وهذا البيت العتيق بينها كان - ولا يزال - علما شامخا
وصرحا ممردا ، ترامت أضواؤه وأصدأؤه الى أبعد مما
ترامى اليه تأثير بيت من تلك البيوتات ، ومزار من هاتيك
المزارات !

ومن يدري يا دهر ، كم من آلاف السنين قد أسقطت
أوراقها أصابعك الباطشة من تقويم الزمن ، منذ كانت تلك
البقعة الضيقة المحصورة من أرض الحجاز ، مأوى يسير
الشان ، ومحط هين الأمر ، يريح فيه المسافرين من طلاب
الرزق قوافلهم فى طريقهم بين الشمال والجنوب ذهابا
وجيئة ، وربما التمسوا قريبا منه بعض ماء العيون ،
قبل أن يستأنفوا مسيرهم الشاق فى قلب الفلاة ؟ !

من يدري يا ذاكرة التاريخ ، كم من أجيال البشر مرت
بك قبل أن يجد أولئك الضاربون فى الصحراء عبر الوادى
القفر المرهوب والفيافى المهجورة الموحشة ، موثلا فى جوار
« مكة » يتريثون عنده عابدين ، التماسا للحماية والعون ،
وتزودا بشىء من الطمأنينة يعينهم على مساعاهم المضنى
ومسراهم المخوف ، عبر الفيافى والقفار ؟

منذ كم من الدهور والأحقاب كانت تلك البقعة من
الصحراء المترامية الأطراف ، مباءة عابدة يرى الناس بينها
وبين السماء صلة مباشرة ، فهم ينثالون اليها حجاجا
ضارعين ، ويلوذون بها داعين مبتهلين ، قد هانت لديهم
الأرض الا موضعا ، وعز الأمان الا فى مكان ؟ !

كيف نمت معك يا زمن ، من محطة صغيرة للقوافل ، الى
مركز تجارى هام ، تتلاقى فيه القوافل من شمال وجنوب ،

وتتواصل حضارتا الشرق والغرب ، حين كانت الابل وحدها عدة السير وأداة الاتصال ؟

وكيف شاركت هذه البقعة فى ذلك التواصل ، عندما ضجعت الدنيا حولها بالحركة وزخرت بالحياة ، فجاءت من الشرق بما فى فارس والهند والصين ، ومن الجنوب بما عند اليمن والأحباش ، ودفعت ذلك كله الى الغرب عن طريق البحرين الاحمر والابيض !

ليس غيرك يا زمن من يستطيع أن يصف لنا بالتفصيل ، الاعتبارات الاجتماعية والاقتصادية التى جعلت المعنى الدينى لهذه البقعة من قلب الفلاة ، يتضخم ويتركز ويتجسم ، حتى صار مثابة العرب ومطاف أحلامهم وتطلعهم الى الاستقرار الاجتماعى والعدالة المرجوة فى حياة آمن وأسعد وأهنأ ، من تلك التى فرضتها عليهم البادية الضارية ان تاريخ العرب المكتوب ، يقدم لنا من ذلك كله حديثا عجبا يملأ مجلدات وأسفاراً ، أنزلها القوم منذ كانت ، منزلة عليا من الثقة فيها والاطمئنان اليها ، ومهما يكن رأى التحقيق العلمى فيها ، فنحن لا نزال نتخذ من مثل تلك الكتب والأسفار ، مراجعنا ومصادرنا فى معرفة ماضى الجزيرة قبل الاسلام ، اذ لا نملك - الى اليوم - مصادر تاريخية عن ذاك العهد الموهل فى القدم ، الا ما تركته لنا الرواية النقلية ، وعليها معتمدنا فى معرفة الأعراض العامة للتطورات التى يمكن أن تؤخذ من القضايا الاجتماعية الكبرى

أما التفاصيل الدقيقة فسوف تظل وديعة الدهر، الى أن

تصير هذه المنطقة موضع دراسة جيولوجية ، تمدنا بآثار
عملية نقيم عليها الدرس التاريخي



منذ متى بدأ التاريخ الديني لمكة ؟

يمضى به بعض كتاب السيرة ومؤرخى « مكة » الى عهد
« شيت بن آدم » ، على أن تلك المرحلة الأولى من تاريخها
البعيد غابت عنا فلا نكاد نعرف الا أنها كانت محطة
متواضعة للقوافل ، وسوقا متوسطة للتبادل التجارى بين
الشمال والجنوب من غرب الجزيرة ، كما نقرأ أنها كانت
فى ذلك العهد السحيق موثلا للعبادة ، وهو أمر لم يكن
منه بد ، تأمينا للراجلين والتجار

ثم تطورت العبادة فى ظروف مجهولة الى وثنية أنكرها
« ابراهيم » فبدأت مرحلة جديدة فى تاريخ مكة ، أجلى
وأوضح ، وأوفى أخبارا ..

وقد تحدثت الكتب السماوية عن رسالة « ابراهيم »
فى تفصيل وبيان ، فقصت علينا التوراة قصة مجيء
ابراهيم الى « مكة » وتركه ابنه « اسماعيل » وأمه « هاجر »
هناك ، حيث أوشكا على الهلاك ظمأ لولا أن انبثق ماء زمزم
فأمسك عليهما الحياة ، وجذب القوافل فى أعقاب الرعاة

ووصف لنا القرآن الكريم موقف « ابراهيم » فى تلك
البرية المقفرة ، يدعو الله أن يجعل أفئدة من الناس تهوى
الى ذريته التى أسكنها بواد غير ذى زرع عند البيت المحرم ،

كما حدثنا عن الرسالة الدينية الجديدة التى عهدت بها
السماء الى ابراهيم وولده اسماعيل

كما يذكر لنا كتابنا الكريم ، مبلغ ما وصل اليه المركز
الدينى والاقتصادى لمكة :

« أو لم يروا أنا جعلنا لهم حرما آمنا يجبى اليه
الثمرات ، واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى »

من ذلك العهد السحيق ، يرتفع الدعاء الخالد :

« لبيك اللهم لبيك ! »

فتجواب به أودية مكة وبطاحها ، وتخضع له الجبال
الصخرية السود التى تحيط بها ، وتعنو له هامات البدو
الصلاب : أبناء البادية وأمرء الصحراء ...

ومن ثم يمضى مؤرخونا الثقات ورواتنا الأول، فيملأون
المجلدات والأسفار بالحديث عن حرمة ذلك «البيت العتيق»
كيف عظمت وجلت ، وعن « مكة » فى عهدها الجديد كيف
تسامت الى المنزلة الرفيعة التى بقيت لها على مر الحقب
وتتابع الأجيال ..

حدثوا أن « جرهما » - وهم خثولة اسماعيل - تولوا
أمر البيت وملأوا فجاج مكة ، حتى ضاقت على أصحابها
الأولين من « بنى اسماعيل » فتركوها دون أن ينازعوا « جرهما »
فى ولايتهم لقرابتهم ، واعظاما لحرمة « مكة » أن يكون بها بغى
أو قتال ، فلما خلا الجو لجرهم بغوا وظلموا وأكلوا مال
الكعبة الذى يهدى لها . ويقول ابن اسحاق : « وكانت

مكة لا تقر فيها ظلما ولا بغيا ، ولا يبغى فيها أحد على أحد
الا أخرجته ، ولا يريد لها ملك يستحل حرمتها الا هلك
مكانه ، فيقال انها ما سميت ببكة الا لانها كانت تبك -
تكسر - أعناق الجبابرة اذا أحدثوا فيها شيئا »

وهكذا أخرج جبابرة « جرهم » من مكة أذلة صاغرين ،
يرثيهم شاعرهم فيقول :

وقائلة والدمع سكب مبادر

وقد شرقت بالدمع منها المحاجر :

كأن لم يكن بين «الحجون» الى «الصفاء»

أنيس ، ولم يسمر « بمكة » سامر

فقلت لها والقلب منى كأنما

يلجلجه بين الجناحين طائر :

بلى نحن كنا أهلها فأزالنا

صروف الليالى والجدود العوثر

وكنا ولاة « البيت » من بعد «نابت»

نطوف بذاك «البيت» والخير ظاهر

فأخرجنا منها المليك بقدره

كذلك - يا للناس ! - تجرى المقادر

فسحَّت دموع العين تبكى لبلدة

بها حرم أمن ، وفيها المشاعر

وروا أن « تبعاً » الحميرى مر بقرب «مكة» فى طريقه الى

اليمن ، فأتاه نفر من هذيل بن مدركة بن الياس بن مضر

فقالوا له :

— أيها الملك ، ألا نذلك على بيت مال دائر أغفلته الملوك
قبلك ، فيه اللؤلؤ والزبرجد والياقوت والذهب والفضة ؟

قال :

— بلى !

قالوا :

— بيت بمكة يعبد أهله ، ويصلون عنده

وكان الهذليون انما أرادوا هلاك « تبع » بذلك ، لما عرفوا
من هلاك من أراد « البيت » من الملوك بسوء . ويقول
« السهيلي » (١) : « وروى نقلة الأخبار أن « تبعا » لما عمد
الى البيت يريد اخرابه ، رمى بداء تمخض منه رأسه قيحا
وصديدا . . . وأنتن حتى لا يستطيع أحد أن يدنو منه
قيد الرمح . وقيل : بل أرسلت عليه ريح كنعت منه — أى
أبيست — يديه ورجليه ، وأصابتهم ظلمة شديدة . . .
فدعا بالحزاة والأطباء فسألهم عن دائه ، فهاهم ما رأوا منه
ولم يجد عندهم فرجا » حتى جاءه حبران من اليهود فقالا :
لعلك هممت بشيء فى أمر هذا البيت ؟

فقال : نعم أردت هدمه . وذكر لهما ما قال الهذليون
فصاح الحبران :

« ما أراد القوم الا هلاكك وهلاك جندك . ما نعلم بيتا
للّه اتخذه فى الأرض لنفسه غيره ، ولئن فعلت ما دعوك اليه
لتهلكن وليهلكن من معك جميعا »

(١) الروض الأنف : ١ — ص ٢٧ ط الجمالية

ثم نصحا له اذا هو أقدم على « البيت » أن يصنع عنده ما يصنع أهله : يطوف به ويعظمه ويكرمه ، ويحلق رأسه عنده ، ويذل له حتى يخرج ..

قالوا : فعرف نصحهما وصدق حديثهما ، فقرب النفر من هذيل فقطع أيديهم وأرجلهم ، ثم مضى فطاف بالبيت ونحر عنده وحلق رأسه ، وأقام بمكة - فيما يذكرون - ستة أيام ، ينحر بها للناس ، ويسقيهم العسل ، ثم كسا البيت أحسن الكساء ، وجعل له بابا ومفتاحا

فيقال انه برى من دائه وصح من وجعه ، ويعلق « السهيل » على ذلك قائلا :

« وأخلق بهذا الخبر أن يكون صحيحا ، فان الله سبحانه يقول : (ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم)

ثم يروى « لتبع » شعرا يقول فيه :

وكسونا البيت الذي حرم الله

له ملاء منضدا وبرودا

ونحرنه بالشعب ستة ألف

فترى الناس نحوهن ورودا

ثم سرنا عنه نؤم سهيلا

فرفعنا لواءنا معقودا

وسوف نسمع في العام الذي وضعت فيه « آمنة »

وحيدها ، قصة صاحب الفيل الذي رده الله عن بيته مريضا مدحورا ...

وتبلغ حرمة مكة عند القوم ، مبلغاً يصوره لنا ما رواه
عن السيدة «عائشة» انها قالت : « ما زلنا نسمع أن «اسافا
ونائلة» - وهما من أصنام العرب في الجاهلية - كانا رجلا
وامرأة من جرهم ، أحدثا في الكعبة فمسخهما الله تعالى
حجرين ! »

وقد ذكر ابن اسحق في (السيرة) وابن الكلبي في
(الأصنام) وياقوت في (معجمه) نسب هذين المخلوقين
الذين مسخا حجرتين ، لاعتدائهما على حرمة الكعبة

كما يصور تلك الحرمة ، ما زعموه - فيما نقل ابن هشام
في السيرة - من « ان أول ما كانت عبادة الحجارة في بني
اسماعيل ، أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم - حين ضاقت
عليهم والتمسوا الفسح في البلاد - الا حمل معه حجارة من
حجارة البيت تعظيماً للحرم ، فحيثما نزلوا وضعوه فطافوا
به كطوافهم بالكعبة . . »

وكانت خدمة الكعبة نذراً غالياً تنذر له الأمهات والآباء
فلذات أكبادهم من قديم الزمان ، من ذلك ما رواه أن امرأة
من « جرهم » كانت لا تلد ، فنذرت لله ان هي ولدت رجلاً
أن تصدق به على الكعبة عبداً لها يخدمها ويقوم عليها ،
فولدت « الغوث بن مر بن أد بن طابخة » فكان يقوم على
الكعبة في الدهر الأول مع أخواله من جرهم :

انى جعلت رباً من بنيـه
ربيطـة بمكة العليـه
فباركنـى لى بها أليـه
واجعله من صالح البريه

بهذا ومثله حدث النقلة وأكد الرواة ، وانه لشاهد على مدى ما وصلت اليه حرمة « البيت العتيق » فيهم ، ومكانة « مكة » عندهم ، تلك المكانة التي تنافس من أجلها المتنافسون وتقاتل المتقاتلون :

حاربت « خزاعة » جرهما حتى أخرجتهم من مكة ، وظلت ولاية البيت في « خزاعة » يتوارثها بنوها كابرا عن كابر ، حتى انتزعها منهم « قصي بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب ابن فهر بن مالك بن النضر » الذي هو قريش على أرجح الروايات

وكان « قصي » يدعى زيدا حتى مات أبوه « كلاب » وتركه فطيما ، فخرجت به أمه « فاطمة بنت سعد » الأزدية حين تزوجها « ربيعة بن حرام » واحتملها الى بلاده ، وبقي « زهرة » أخو « قصي » في مكة ، اذ كان قد بلغ مبلغ الرجال

وشب « قصي » غريبا وهو لا يعرف الا أنه ابن « ربيعة » زوج أمه ، حتى تساب هو ورجل من قضاة ، فعيه قائلا :
- لست منا ، وانما أنت فينا ملصق

فدخل على أمه وقد وجع لذلك ، فقالت له :

- يا بني ، صدق ٠٠ انك لست منهم ، ولكن رهطك خير من رهطه ، وآباءك أشرف من آبائه ، وأنت قرشي ، وأخوك زهرة ، وبنو عمك بمكة ، وهم جيران ببيت الله الحرام وعاد الى مكة رجلا ، فانتشر ولده وكثر ماله وعظم شرفه ، واذاك رأى أنه « أولى بالكعبة وبأمر مكة » من خزاعة

وبنى بكر ، لأنه قرشى ، وقریش سلیل اسماعیل وصریح
ولده »

وشبت الحرب شعواء بين قریش ومن حالفها ، وبين
خزاعة وبنى بكر ، ثم تداعوا الى الصلح والتحکيم ، وحكموا
« يعمر بن عوف » البكرى فقضى بأن « قصيا أولى بالكعبة
وأمر مكة ، من خزاعة »

ويقول الذين كتبوا تاريخ العرب ، ان مكة قد بدأت
بقصى عهدا تضاءلت الى جانب مجده عهود خزاعة وجرهم ،
وجدت فيها وظائف دينية أضيفت الى ما كان لها من قبل ،
فكانت الى قصى « الحجابة ، والسقاية ، والرفادة ، والندوة ،
واللواء » وبها حاز شرف مكة كله ، وأبقاه فى ولده من
بعده ، ما يعرف المؤرخون أن أحدا نازعهم فيه قط

وكان أمر « قصى » فى قومه ، مدى حياته وبعد موته ،
كالدين المتبع لا يعمل بغيره ، واتخذ لنفسه دار الندوة ،
وجعل بابها الى مسجد الكعبة ، ففيها كانت قریش تقضى
أمرها !

فلما أدركه الكبر ورق عظمه ، عز عليه ألا يدرك ولده
البكر « عبد الدار » ما بلغه أخوه « عبد مناف » فى زمان
أبيه من شرف ، فقال الشيخ لعبد الدار :

« أما والله يا بنى لالحقنك بالقوم وان كانوا قد شرفوا
عليك » ثم جعل اليه كل ما كان بيده من أمر قومه

قالوا : وهلك قصى ، ولبثت قریش على ما أراد لها زمنا ،
حتى قام بنو عبد مناف بن قصى : عبد شمس ، وهاشم ،
والمطلب ، وثوفل ، فأجمعوا على أن يأخذوا ما بأيدي بنى

عمهم « عبد الدار » مما كان جدهم قصى قد جعله اليه من
الندوة والحجابة واللواء والسقاية والرفادة ، اذ رأوا أنهم
أولى بذلك منهم لشرفهم عليهم وفضلهم فيهم ، فتفرقت عند
ذلك قريش وأجمعوا للحرب ، ثم تصالحوا على أن يقتسموا
الميراث الجليل : لبنى عبد الدار الحماية واللواء والندوة ،
ولبنى عبد مناف السقاية والرفادة

وظائف دينية ضخمة ، استحدثت بعضها قصى ، وبعضها
قديم عريق طالما اعتز به الذين تولوه ، اعتزازا وعاه الزمن
وسجله الشعراء مباهين

قال « أوس بن تميم السعدى » مفاخرا بما كان قومه
يتولون من اجازة الناس بالحج من عرفة :

لا يبرح الناس ما حجوا معرفهم

حتى يقال : أجزوا آل صفوانا

مجد بناه لنا قدما أوائلنا

وأورثوه طوال الدهر أخرانا

وقال « عمير بن قيس » أحد بنى مالك بن كنانة ، يفخر
بالنسأة على العرب :

لقد علمت معد أن قومى

كرام الناس أن لهم كراما

فأى الناس فاتونا بوتر ؟

وأى الناس لم نعلك لجاما ؟

ألسنا الناسئين على معد

شهور الحل نجعلها حراما ؟

وذلك انه كانت للعرب اشهر حرم لا يحل لهم فيها قتال
أو غارة أو طلب ثار ، الا أن ينسأها لهم أحد النساء

ثم كانت للعرب في مكة طقوس ومشاعر ومناسك منذ
رفع « ابراهيم » القواعد من البيت و « اسماعيل » ، وعهد
اليهما الله أن يطهرا بيته للطائفين والعاكفين والركع
السجود :

« ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ،
وأرنا مناسكنا وتب علينا انك أنت التواب الرحيم »

« والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير
فاذكروا اسم الله عليها ٠٠ »

وقد ذكرنا آنفا ، ما كان من تقديس بعض بنى اسماعيل
لحجارة الحرم التى حملوها معهم تبركا ، ثم خلف من بعدهم
خلف نسوا ما كانوا عليه فعبدوا الأوثان وبقيت فيهم على
ذلك بقايا من عهد ابراهيم يتمسكون بها ، من تعظيم البيت
والطواف به ، والحج ، والعمرة ، والوقوف على عرفة
والمزدلفة ، وهدى البدن ، والاهلال بالحج ، والتلبية



وطال المدى ومكة مهوى الأفئدة وقبله العرب ، لا تكاد
بقعة أخرى تجرؤ على منافستها أو تطمع في انتزاع مجدها ،
حتى ترتد دون الفاية خاسئة حسرى ...

وذاكرة الزمن قد وعت من أمر تلك المنافسة في خارج
الجزيرة وداخلها ، ما يتناقله المؤرخون من حديث البيت

الذى أقامه « الفساسنة » بالحيرة ، والكنيسة التى بناها
« أبرهة الأشرم » فى صنعاء ، ليصرف إليها حج العرب
وقد جلب إليها « الرخام المجزع ، والحجارة المنقوشة
بالذهب ، من قصر بلقيس صاحبة سليمان عليه السلام ،
وكان القصر من موضع هذه الكنيسة على فراسخ ، وفيه
بقايا من آثار ملكها ، فاستعان بذلك على ما أراده فى هذه
الكنيسة من بهجتها وبهائها ، ونصب فيها صلبانا من
الذهب والفضة ، ومنابر من العاج والابنس » (١)

ثم كتب الى مولاه نجاشى الحبشة : « انى قد بنيت لك ايها
الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك ، ولست بمنته
حتى اصرف اليها حج العرب »

لكن « أبرهة » هلك دون غايته ، وبقي البيت العتيق
بمكة كما كان - وكما سيظل الى الابد - مثابة الخائفين ،
وقبله الحجاج العابدين ، دعوة ابراهيم الخليل وأذانه فى
الناس :

« وأذن فى الناس بالجدج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين
من كل فج عميق »



وما تزال الدنيا - حتى الساعة - تقف خاشعة حائرة
أمام ذلك الجلال الذى استأثرت به « مكة » دون سواها من
مدائن كبيرة ، وحواضر أجمل منظرا وأرغد عيشا وأخصب
أرضا ...

(١) الروض الأنف : ٤٠/١

وما يزال كثير من المستشرقين ، في عجب من أمر تلك
الغزة المنيعة ، تظفر بها بقعة جرداء في واد غير ذى زرع
ولا ظل ، يصفها زائر منهم في القرن العشرين فيقول :
« في قلب الصحراء ، في واد قفر بين سلسلتين من الجبال
الصخرية يحجبانها فلا يحس الحاج بلوغها حتى يقع نظره
على شوارعها ... »

« تقع بين تلال صخرية سود ، ذات أطوال متساوية
تمتد عدة أميال ، حتى ليخال المرء أن لا نهاية لتلك التلال
الجرداء ، ولا لتلك الصحراء المترامية التي يكاد ضوءها
يذهب بالأبصار ، ولا يأمل المرء أن يختلس برهة ينجو فيها
من حرارتها اللافتحة . فحصاها ، وصخورها الصم ، تبعث
الى السماء بخارها فتبدو كأنها فحم يحترق ، ويصعد الى
السماء دخانه ... »

« واذا استثنينا بضع شجرات السنط المتناثرة ، بدت
معالم الحياة كأنما جمدت في تلك الفلاة ، فالوحشة تامة ،
والسكون مسيطر ، ولا يصك أذنك الا صفير الريح الصرصر
العاتية ... »

« وحتى السراب الذى يخدع المسافر فيجعله يأمل في
النخيل أو ظلال الحدائق الرطبة ، لا وجود له ، فلا نخيل
هناك ، ولا حدائق توحى بالتفكير فيها وتمنيها ، فما من
شئ ينبت في بلدة الرسول المقدسة ، والليل هو الملاذ
الوحيد من حرارة الشمس الكاوية »

بهذا وصف « بودلى » البلد الحرام الذى ظلت له حرمة
لا تدرك ولا تنافس ، ولعل التفاتة سريعة الى تاريخه القديم ،

تجلو لنا سر تلك القداسة العريقة التى لم تنل منها السنون
ولا عدت عليها عواذى الزمان ، فلمكة - منذ كانت - موقعها
الاقتصادى الفذ ، ومكانتها الدينية الأولى



أترى حديثنا عن « مكة » و « البيت العتيق » قد طال ؟
أجل ، ولكن لا بأس علينا من ذلك ، ففي هذه البيئة
المقدسة تفتحت عيون الفتاة التى عرفها التاريخ أما خالدة
فيها كان منبت « آمنة بنت وهب » والدة النبی العربی
الیتیم الذى بعث فى مكة ، فأيد بمبعثه ذاك ما كان لها من
حرمة عريقة ظل العرب يتوارثونها جيلا بعد جيل ،
واتخذ من الكعبة التى تعبد فيها « الخليل » قبلته التى يولى
المسلمون وجوههم قبلها حيثما كانوا وانى أقاموا ، ما عبد
الله فى الارض !

أجل هى مكة ، بلد « آمنة » وولدها الوحيد ، ومهد
رسالته ، ومثابة آبائه وأجداده ، وقبله الذين آمنوا به
امس واليوم وغدا والى الأبد ...

بنو زهرة

« ... لم يزل الله ينقلني من
الأصلاّب الطيبة الى الأرحام
الطاهرة مصفى مهذباً ، لا تتشعب
شعبتان الا كنت في خيرهما »
من حديث شريف

في يوم لم يحدده التاريخ ، حوالى منتصف القرن السادس
الميلادى رأت النور سليلة أسرة نابهة ، من القبيلة التى كانت
ذات الشأن الاول فى تلك المنطقة المقدسة ، والتى استأثرت
وحدها بوظائفها الدينية الضخمة ، وما يتبعها من أجداد
وامتيازات ...

وتحمل الأسرة اسم « زهرة » (١) الولد البكر لكلاب بن

(١) فى (المعارف لابن قتيبة) أن زهرة اسم امرأة عرف بها بنو زهرة.
قال « السهيلي » فى (الروض الأنف ٧٩/١) :
« وهذا منكر غير معروف ، وإنما هو جدّهم كما قال ابن اسحق »
يشير الى قول ابن اسحق : « فولد كلاب بن مرة رجلين : قصي بن كلاب ،
وزهرة بن كلاب »

وقد علقى ناشرو السيرة على هذا بقولهم فى الهامش : وزهرة امرأة
نسب اليها ولدها دون الأب ، وهم أخوال الرسول
ثم لم يزيّدوا ، ولم يشيروا الى مرجعهم فى هذا
ويلاحظ عليهم أنهم فى رقم ١ من هامش الصفحة نفسها ، نقلوا عن
الطبرى نصاً صريحاً فى أن زهرة رجل ، ثم لم يعلقوا على هذا التناقض
فى الروايات

مرة بن كعب بن لؤى ، والشقيق الأكبر « لقصى » الذى ملك مكة ما عاش ، ثم تركها لقريش ميراثا مجيدا لم تنافسها فى شيء منه قبيلة أخرى ، حتى جاءها « محمد » - حفيد قصى وزهرة - بمجد الدهر وعز الأبد !

وأم زهرة وقصى ، « فاطمة بنت سعد بن سيل » أحد بنى الجدرية . سموا بذلك لأن جدهم « عامر بن عمرو الأزدي » بنى للكعبة جدارا حين دخلها السيل ذات مرة ، ففزعت قريش لذلك ، وخافت أن جاء سيل آخر أن يذهب شرفها ودينها . فلما بنى « عامر » الجدار ، سمى الجادر ، ولقب أولاده من بعده بنى الجدرية

ولسعد بن سيل ، جد قصى وزهرة لأمهما ، يقول الشاعر :

ما نرى فى الناس شخصا واحدا
من علمناه ، كسعد بن سيل
فارسا اضبط فيه عسرة
وإذا ما واقف القرن نزل
فارسا يستدرج الخيل كما اسـ
تدرج الحر القطامى الحجل



عرف « بنو زهرة » منذ كانوا ، بالود الخالص لبنى عبد مناف بن قصى دون أخوتهم من بنى عبد الدار . ولعلنا نذكر هنا ما نقلناه فى حديثنا عن « البيت العتيق » من أمر

قصي حين كبر ورق عظمه ، فعز عليه ألا يبلغ ابنه البكر
« عبد الدار » ما بلغه ابنه « عبد مناف » من شرف ورفعة ،
فقال قصي لبكره :

« أما والله يا بني لأحقنك بالقوم وإن كانوا قد شرفوا عليك :
لا يدخل رجل منهم الكعبة حتى تفتحها أنت له ، ولا يعقد
لقريش لواء لحربها إلا أنت بيدك ، ولا يشرب أحد بمكة إلا
من سقايتك ، ولا يأكل أحد من أهل الموسم طعاما إلا من
طعامك ، ولا تقطع أمرا من أمورها إلا في دارك »

ثم كان ما كان من اذغان قريش لوصية شيخها حيناً ،
ثم اجتمع بنى عبد مناف بن قصي : عبد شمس وهاشم
والمطلب ونوفل ، على أن يأخذوا ما بأيدي بنى عبد الدار ،
لشرفهم عليهم وفضلهم في قومهم ، فتفرقت عند ذلك
قريش ، فكانت طائفة مع بنى عبد مناف ، يرون أنهم
بمكانتهم في قومهم ، أحق بالأمر من بنى عبد الدار ، وكانت
طائفة مع بنى عبد الدار ، يرون أن لا ينزع منهم ما كان
« قصي » جعل اليهم

وعقد كل فريق على أمرهم حلفاً مؤكداً على أن لا يتخاذلوا
ولا يسلم بعضهم بعضاً ، فأخرجت نساء بنى عبد مناف
جفنة مملوءة طيباً ، فوضعوها لأحلافهم في المسجد عند
الكعبة ، ثم غمس القوم أيديهم فيها فتعاهدوا وتعاهدوا هم
وحلفاؤهم ، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيداً على أنفسهم ،
فسموا المطيبين . كما تعاهد بنو عبد الدار وحلفاؤهم عند
الكعبة ، على مثل ذلك ، فسموا الأحلاف
وقد كان « بنو زهرة » مع بنى عبد مناف في ذاك الحلف ،

ولما عبثت كل قبيلة من المطيبين لآخرى من الأحلاف ،
عبثت « زهرة » لبنى جمح ، وأقسمت لتفنيها (السيرة
١٣٩)

كما كان « بنو زهرة » مع بنى عبد مناف أخوة متجاورين
لا ينفصلون ، وببوتهم أبدا متجاورة ، فحين جزأت قریش
الكعبة ، كان شق الباب لبني عبد مناف وزهرة ، وكان
ما بين الركن الأسود والركن اليماني لبني مخزوم ومن انضم
اليهم من قبائل ، وكان ظهر الكعبة لبني جمح وسهم ، وكان
شق الحجر لبني عبد الدار بن قصي ، الخ



وكذلك كان « بنو زهرة » ممن سبقوا الى تلبية النداء
حين تداعت قبائل من قریش الى « حلف الفضول » قبل
البعثة بعشرين سنة ، وكان اكرم حلف واشرفه . وذلك أن
رجلا من زبيد قدم « مكة » ببضاعة فاشتراها منه العاصي
ابن وائل ، وكان ذا قدر بمكة وشرف ، فحبس عن الزبيدي
حقه ، فاستعدى عليه الأحلاف : عبد الدار ، ومخزوما ،
وجمح ، وسهما ، وعدى بن كعب ، فأبوا أن يعينوه على
العاصي وانتهروه ، فلما رأى « الزبيدي » الشر ، أوفى على
جبل أبى قبيس عند طلوع الشمس ، وقریش في أنديتهم
حول الكعبة ، فصاح بأعلى صوته :

يا آل فهر لمظلوم بضاعته
ببطن مكة نائي الدار والنفر

ومحرم أشعث لم يقض عمرته
يا للرجال ، وبين الحجر والحجر

ان الحرام لمن تمت كرامته

ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

فقام على أثر ذلك « الزبير بن عبد المطلب » وقال :
ما لهذا مترك !

قالوا: فاجتمعت هاشم وزهرة ، وتيم بن مرة فى دار
عبد الله بن جدعان : أحد بنى تيم بن مرة بن كعب بن لؤى
(وعبد الله هو ابن عم السيدة عائشة) فصنع لهم طعاما ،
وتعاقدوا على (ألا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن
دخلها من سائر الناس إلا أقاموا معه ، وكانوا على من ظلمه
حتى ترد عليه مظلومه)

وانصفوا « الزبيدى » من العاصى

فيروى « ابن اسحاق » عن سمع « طلحة بن عبد الله
الزهرى » أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « لقد
شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لى به
حمر النعم ، ولو ادعى به فى الاسلام لأُجبت »



من هذه الأسرة القرشية الكريمة التى عرفت من قديم
بصلة الود لبنى عبد مناف بن قصى ، والتى ذكر لها التاريخ
مشاركتها فى الأمجاد الكبرى لقريش ، واتصالها الوثيق
بالأحداث الجلييلة التى شهدتها « مكة » قبيل الاسلام ،

وتحالفها مع « هاشم » وبنيه في الحلفين العظيمين : حلف المطيبين وحلف الفضول ... من هذه الأسرة كانت « آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة » التي توجت ذاك المجد العريق بالشرف الذي لا يدرك ولا ينال ...

أبوها « وهب » سيد بني زهرة ، وجدها عبد مناف بن زهرة الذي يقرن اسمه بأبن عمه عبد مناف بن قصي ، فيقال : « المنافان » تعظيما وتكريما (١)

وجدتها لأبيها : « عاتكة بنت الأوقص بن مرة بن هلال السلمية » إحدى اللواتي اعتز بهن الرسول فقال :
« أنا ابن العواتك من سليم »

ولم يكن نسب « آمنة » من جهة أمها ، دون ذلك عراقية وأصالة ، فهي ابنة « برة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصي »

وجدتها لأمها : « أم حبيب بنت أسد بن عبد العزى بن قصي »

ووالدة أم حبيب : « برة بنت عوف بن عبيد بن عويج ابن عدى بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر »

سلالة عريقة أصيلة ، أنبتت « آمنة » لتضطلع بعبئها الجليل في أمومتها التاريخية

وراثات مجيدة ، أهدتها الى ولدها فجمعت له عز المنافين : « عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، وعبد مناف بن

(١) الروض الأنف : ١٠٤/١

قصي بن كلاب « وجعلته - صلى الله عليه وسلم - يعتز
بنسبه فيقول من حديث رواه « ابن عباس » :
« ... لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة الى الأرحام
الطاهرة مصفى مهذبا ، لا تشعب شعبتان الا كنت في
خيرهما »

وعن « أنس » أنه قال :

« قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لقد جاءكم
رسول من أنفسكم) - بفتح الفاء - وقال : انا أنفسكم
نسبا وصهرا وحسبا »
نسب تحسب العلاء بحلاه قلدته نجومها الجوزاء
حبذا عقد سؤدد وفخار أنت فيه اليتيمة العصماء



الكتاب الثالث :

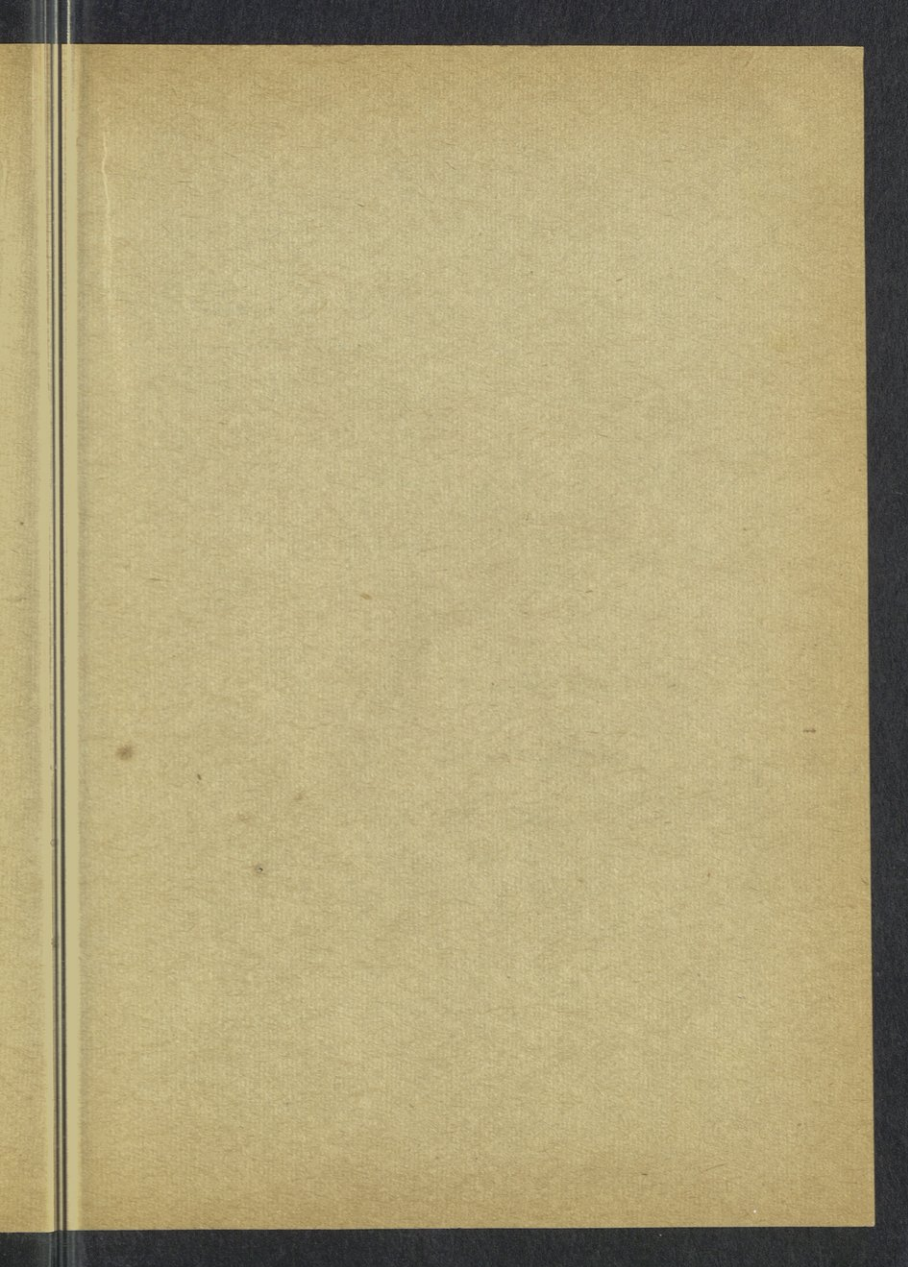
زهرة قریش

١ - فتاة زهرة

٢ - فتى هاشم

٣ - العرس

٤ - البشرى



فتاة زهرة

« ... وكانت يومئذ أفضل
فتاة في قریش نسباً وموضعاً »

ابن اسحاق

تفتح صباها في أعز بيئة وأطيب منبت ، فاجتمع لها من
أصالة النسب ورفعة الحسب ، ما تزهو به في ذلك المجتمع
الأرستقراطي المعتز بكرم الأصول ومجد الأعراق ...
كانت زهرة قریش الیانة ، وبت سيد بنی زهرة نسباً
وشرفاً ، وقد ظلت فی خدرها محجبة عن العیون مصونة عن
الابتذال ، حتی ما يكاد الرواة يتبينون ملامحها أو يجروون
على رسم صورتها ، بل لا يكاد المؤرخون يعرفون عنها
الا أنها « كانت يومئذ أفضل فتاة في قریش نسباً
وموضعاً » (١)

على أن شذاها العطر كان ينبعث من دور بنی زهرة ،
فينتشر في أرجاء مكة ويشير أكرم الآمال في نفوس شبانها
الذين زهدوا في كثرات سواها ، ابتذلتهم العیون والألسن ،
« وعرف لبعضهن أثر فعال في المضاربات والمقامرات التي
كانت ذائعة بين المكيين اذ ذاك ، على حين اكتفت أخريات

(١) السيرة ١/١٦٥

— كما يقول بودلى — بمعاونة التجار والمقامرين فى تبديد
ما ربحوا ، فسيطرت الطبيعة الحاسبة على مشاعرهن
وحبهن ، فكانت عواطفهن ترتفع وتنخفض مع السوق »



وقد عرفت « آمنة » فى طفولتها وحداثتها ، ابن العم
« عبد الله بن عبد المطلب » بين من عرفت من أترابها فى
الأسر القرشية ، اذ كان البيت الهاشمى أقرب هذه الأسر
جميعا الى بيت آل زهرة : جمعتهم أواصر ود قديم لم
تنفصم عراه — على ما رأينا — منذ عهد الشقيقين « قصى
وزهرة ولدى كلاب بن مرة »

أجل عرفت « آمنة » « عبد الله » قبل أن ينضج صباها
ويحتويها خدرها ، وتلاقت وإياه فى الطفولة البريئة على
روابى مكة وبين ربوعها ، وفى ساحة الحرم الأمين ، كما جمعتهم
مجامع الأسرة حيث كان عبد المطلب سيد بنى هاشم ، ووهب
سيد بنى زهرة يتزاوران عن ود ، ويجتمعان للتشاور كلما
أهم « قريشا » أمر ...



ثم حجبت « آمنة » حين لاحت بواكير نضجها ، فى الوقت
الذى كانت فيه خطوات « عبد الله » تسرع به الى الشباب
ورنت أنظار الفتيان من بيوتات مكة الى زهرة قريش ،
وتسابقوا الى باب بيتها يلتمسون يدها ، ويزفون إليها ما لهم
من مآثر وأمجاد

فتى هاشم

« ودخل عبد المطلب بينيه
العشرة على هبل في جوف الكعبة ،
فقال لصاحب القداح :

- اضرب على بنى هؤلاء بقداحهم
« وكان عبد الله أحب ولد عبد
المطلب اليه ، فكان يرى أن السهم
إذا أخطاه فقد أشوى .. »

ابن اسحاق

لم يكن « عبد الله » بين الذين تقدموا لخطبة « زهرة قريش »
مع أنه الجدير بأن يحظى بيدها دونهم جميعا ، فما كان
فيهم من يدانيه شرفا ورفعة ووسامة

فهو ابن « عبد المطلب بن هاشم » أمير مكة « الذي
شرف في قومه شرفا لم يبلغه أحد من آبائه ، وأحبه قومه
وعظم خطره فيهم »

وأمه « فاطمة بنت عمرو بن عائذ المخزومية » من صميم
البيت القرشي ، وقد أنجبت لعبد المطلب ولديه « الزبير ،
وأبا طالب » فكان من نسلها الامام على ، وجعفر الطيار

ثم ولدت « لعبد المطلب » فتاه عبد الله ، أبا محمد الرسول
وجدة « عبد الله » لأبيه ، « سلمى بنت عمرو النجارية »
التي كانت لا تنكح الرجال لشرفها في قومها ، حتى يشترطوا
لها أن أمرها بيدها اذا كرهت رجلا فارقتة «



ولعل « آل وهب » لم يعجبوا لموقف « عبد الله » ، اذ لم
يتقدم خطبة « آمنة » ، فما كانوا ليجهلوا أن أباه قد نذر
نذرا غليظا ، لينحرن أحد بنيه لله عند الكعبة
وأى القرشيين لم يعلم بقصة ذلك النذر المحتوم ، الذى
يقرر مصير أبناء شيخ بنى هاشم ، وفيهم عبد الله ؟
ذلك أن « عبد المطلب » حين انتهت اليه اماره « مكة » وولى
السقاية فيما ولى من وظائف الحرم ، اخذ يطيل التفكير فيما
يلقاه الحجيج من مشقة بسبب قلة الماء

وذكر بشر « زمزم » التى أنقذت جده « اسماعيل » من
الهلاك ، وجذبت الى « مكة » القوافل على آثار الرعاة ..
وذكر ما وعته أذناه مما تقل الآباء عن الأجداد ، ورددته
الرواة فى مسامر « مكة » ومجامعها عن حديث « جرهم »
ودفنها « زمزم » حين أرغمت على الخروج من مكة ، فود لو
وقفه الله الى العثور على موضع البئر المطمورة ، اذن لكان له
شأن أى شأى !

وقويت رغبته هذه مع طول التفكير ، حتى صارت مشغلة
نهاره وليله ، وخايلته الرؤى فى منامه تبشره بتحقيق امله
الغالى !

روى « ابن اسحاق » عن سمع على بن أبى طالب ،
يحدث حديث جده وزمزم فيقول :

قال عبد المطلب : « انى لنائم فى الحجر اذ أتانى آت فقال :
« ... احفر زمزم ، انك ان حفرتها لم تندم ، وهى تراث
من أبىك الأعظم ، لا تنزف أبدا ولا تدم ، تسقى الحجيج
الأعظم ، مثل نعم جافل لم يقسم »

فغدا « عبد المطلب » بمعوله ومعه ابنه الحارث ، ليس له
يومئذ ولد غيره ، حتى اذا هم بالحفر بين وثنى « أساف
ونائلة » قامت اليه قريش تصده قائلة : والله لا نتركك
تحفر بين وثنينا هذين اللذين ننحر عندهما

فالتفت « عبد المطلب » الى ابنه « الحارث » وقال :

— ذد عنى حتى أحفر ، فوالله لأمضين لما أمرت به

وقاومت قريش ، وعيرته بقله الولد ، على حين أصر هو
على أن يمضى فى الحفر ، فلما بدت له الحجارة التى طويت
تحتها البئر، رفع صوته مكبرا ، فعرفت قريش انه قد أدرك
حاجته ، فقاموا اليه فقالوا :

— يا عبد المطلب ، انها بئر أبينا « اسماعيل » ، وان لنا
فيها حقا ، فأشركنا معك فيها ..

قال :

— ما أنا بفاعل ، ان هذا الأمر قد خصصت به دونكم ،
وأعطيته من بينكم

فقالوا :

— فأنصفنا فانا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها ...
قال : لا ، ولكن هلموا الى أمر نصف بينى وبينكم ، نضرب

عليها بالقداح : أجمل للكعبة قدحين ، ولى مثلهما ، ولكم
كذلك ، فمن خرج له قدحاه على شيء كان له ، ومن تخلف
قدحاه فلا شيء له

قالوا : « أنصفت »

وضربت القداح ، فخرج قدحاه الكعبة على الذهب ، وقدحاه
عبد المطلب على الأسياف والدروع ، وتخلف قدحاه قريش !
ومن ثم أقام عبد المطلب سقاية زمزم للحجاج ، لا ينازعه
في مائها أحد من قومه قريش

تلك هى قصة زمزم وعبد المطلب ، كما رواها كتاب
السيرة ومؤرخو ذلك العهد من المسلمين ، أتينا بها هنا
تمهيدا لحديث « النذر » الذى يتصل « بعبد الله » أقوى
اتصال

ذلك أن أباه عبد المطلب - حين اشتغل بحفر البئر - لم
يكن له من الولد كما ذكرنا سوى ابنه الحارث ، فلما لقى
من قريش ما لقى ، وسمع تعييرها إياه بقلته الولد ، نذر
يومئذ ، لئن ولد له عشرة نفر ثم بلغوا حتى يمنعوه ،
لينحرن أحدهم عند الكعبة

وتوافى بنوه عشرة ، وكان « عبد الله » أصغرهم جميعا ،
فتلبث عبد المطلب حتى اذا عرف أنهم بحيث يمنعونه ،
دعاهم الى الوفاء لله بنذره فلبوا طائعين ...



أصبحت « قريش » ذات يوم من شهر جمادى الاولى

قبل مبعث النبي بنحو احدى وأربعين سنة ، ولا حديث لها
الا « عبد المطلب » الذى خرج ببنيه العشرة الى الكعبة ،
وقد حمل كل منهم ، قدحا عليه اسمه ، واستسلموا
للمصير المحتوم راضين

وخفقت قلوب نساء قريش جميعا عطفًا وحنانًا فى انتظار
اللحظة الفاصلة ، ولعل عدداً منهن قد ذهب فيمن ذهب الى
الكعبة ، ليسمع كلمة السماء فى الذبيح المختار ، على حين
بقيت « آمنة » مع من بقين ، لا تستطيع أن تبرح دار أبيها ،
وان اقامت تترقب الأنباء فى لهفة ، وهى لا تدري أى بنى
العم يختاره رب الكعبة وفاء بنذر شيخ الهاشميين
ومضت الساعات ثقيلة بطيئة ، وما من عائد يخبر عما
كان هناك فى الحرم



ثم انتشر الخبر فجأة فى سرعة البرق فملأ أرجاء مكة ،
متنقلاً بين أندية قريش ودورها حتى بلغ مسمع « ابنة
وهب » :

لقد اختارت الكعبة « عبد الله » ذبيحا
ووجمت « آمنة » للنبا كما وجمت له كل قرشية يعز
عليها أن ينحر زين شباب مكة وأعز أبناء « عبد المطلب »
على أبيه وعلى قريش جميعا !

وتتابعت الأخبار بعد ذلك سراعاً ، تصف كيف دخل
شيخ هاشم ببنيه على « هبل » فى جوف الكعبة ، وأخبر

صاحب القداح هناك بنذره ، ثم قاوم عاطفة الأبوة بكل ما يملك من شجاعة وإرادة وإيمان ، ليقول لصاحب القداح : « اضرب على بنى هؤلاء بقداحهم هذه » !

فأعطاه كل واحد من الأبناء العشرة قدحه الذى فيه اسمه ، وأبوهم ينقل عينيه بينهم جميعا ، حتى استقرت نظراته آخر الأمر على أصغرهم « عبد الله » ففاض قلبه رقة وحبا واشفاقا ، ورأى « أن السهم اذا أخطأ هذا الفتى الحبيب ، فقد أسوى » !

وحانت اللحظة الحاسمة :

ضرب صاحب القداح ، و « عبد المطلب » قائم عند هبل يدعو الله ، فخرج القدح على عبد الله !

هنالك جمع الشيخ كيانه المهتز ، وأخذ فتاه الغالى بيد ، وأمسك الشفرة باليد الأخرى ، ثم أقبل به على « أساف ونائلة » ليذبحه !

بهذا كله ، طارت الأنباء فى أرجاء « مكة » حتى بلغت حى بنى زهرة ، ثم أمسك الراوى ، وخيم الوجوم الحزين على الأفق ، وجمدت الأعين فما تجود بدمعة !

واقفرت دار سيد بنى زهرة من رجالها ، كما اقفرت أندية قریش جميعا ودورها ... ترى هل ذهبوا ليحضروا مذبح عبد الله ، ويكونوا الى جانب أبيه وهو يعانى التجربة الرهيبة ؟

هكذا ظنت « آمنة » وتمنت فى تلك اللحظة ، لو استطاعت أن تنطلق فى اثر قومها وهم يسعون الى الحرم مهرولين ، ولكن انى لها ذاك وهى المحجبة المصون ؟ !

وهبها استطاعت أن تفعل ، أفقادرة هى على أن تصنع
شيئا من أجل انقاذ ابن العم ؟ لقد قضى الأمر وفات أوان
الصلاة والدعاء ...



وولى النهار ...

وأقبل ليل كثيف السواد متراكب الظلمات ، ورجال
قريش لم يؤوبوا بعد الى دورهم
ما الذى أمسكهم هناك وعاقهم عن الأوبة ؟ لم تكن
« آمنة » تدرى ، حتى عاد من يخبرها أن الرجال قد
ارتحلوا عن « مكة » فما فيها منهم الليلة سامر !
وانبثق شعاع نحيل من الأمل وسط الظلمات المتراكبة ،
حين مضى الراوى فى حديثه يقول :
« لم يكد الأب يهم بذبح فتاه ، حتى قامت اليه قريش من
أنديتها فقالوا :

— ماذا تريد يا عبد المطلب ؟

قال : « أفى بنذرى »

فقال له قريش وبنوه :

— والله لا تذبحه أبدا حتى تعذر فيه . لئن فعلت هذا
لا يزال الرجل يأتى بابنه حتى يذبحه ، فما بقاء الناس على
هذا ؟

ووثب المغيرة بن عبد الله المخزومى — وهو من آل
فاطمة بنت عمرو المخزومية : أم عبد الله والزبير وأبى
طالب — فأمسك بيد عبد المطلب وهو يصيح :

— والله لا تذبحه أبدا حتى تعذر فيه ، فان كان فداؤه
بأموالنا فديناه ...

وأضاف شيوخ قریش :

— فلتنطلق بولئك الى عرافة بخير ، لها تابع ، فلتسألها :
ان امرتك بذبحه ذبحته ، وان امرتك فيه بأمر لك وله فيه
فرج ، قبلته ...

فنزل « عبد المطلب » على رأى القوم ، وانطلقوا فى طريق
« خير » يلتمسون الكلمة الفاصلة من عرافة الحجاز

مضوا وخلفوا من ورائهم قلوبا واجفة وعيونا مسهدة ،
وجنوبا قد نبت بها المضاجع ، والسنة ضارعة فى جوف
الليل ، لا تفتأ تدعو الله للمستشهد الصابر : عبد الله ،
فتى هاشم

وأعقبت رحيلهم ايام قاربت العشرين عدا ، وانيات الخطو
بطيئات المسرى ، كأنما كانت تجر أثقالا من الصم الصلاب
وبقيت أندية قریش ومسامرها طوال تلك المدة ، مقفرة
خلاء

وغشيت بيوتها غاشية من القلق والهـم والانتظار
وتعلقت العيون والقلوب بمشارف الطريق الآتى من
الشمال ، ترقب عودة الركب الراحل ...

وأرهفت الأذان لعلها تتسمع نأ عن مصير الفتى العزيز
وتوقفت الحياة أو كادت فى تلك الايام العشرين ، فقد
غاب عن « مكة » أميرها وفتاها ، ومعهما سادة قریش
ونجومها الزهر

وراح العبيد والاماء يسعون بين الدور وبين ممر القوافل ،
يلتمسون هنالك وافدا من « خير » يعرف شيئا من أنباء
الركب الغائب

وشهدت الليالى نفرا من العقائل الكريمات ، يتسللن من
أحياء قريش محجبات بستار من الظلمة الحالكة ، فاذا بلغن
الحرم تعلقن بالكعبة مبتهلات متوسلات ، ثم انطلقن على اثر
ذلك الى « المسعى » بين الصفا والمروة ، يدعون الله أن
يستجيب لضرعاتهن كما استجاب لضراعة « هاجر » فى
هذا المكان ، وأن ينقذ « عبد الله » كما أنقذ جده
« اسماعيل » !

ثم كان لهذا كله آخر ، حين لاحت على الأفق الشمالى سحب
من غبار مستثار ، تكشفت عن قافلة تغذ السير الى « مكة » ،
فخرج الغلمان على قمم الروابى ورءوس الجبال ، يستكشفون
أمر القافلة ، فاذا الركب يدخل « مكة » على عجل ساعيا
نحو ساحة الحرم ، وهناك ترجلوا جميعا ولبثوا قائمين
يدعون ، على حين مضت رسلهم الى أحياء قريش تجمع
الابل وتسوقها نحو « البيت العتيق »

وسعى غلام من موالى « بنى زهرة » ، يحدث سيدات
البيت القرشى عما شاع فى البلد الحرام وذاع ، من خبر
الكاينة والنذر :

حدثوا أن القوم انطلقوا حتى جاءوها بخير ، وقص عليها
« عبد المطلب » خبره وخبر ابنه « عبد الله » وما أراد به
وفاء بنذره فيه . فقالت لهم :

— ارجعوا على اليوم حتى يأتينى تابعى فأسأله ...

فلما مضوا عنها قام « عبد المطلب » ليلته يدعو ربه ، ثم غدوا عليها فقالت لهم :

— قد جاءنى الخبر : كم الدية فيكم ؟

اجابوا : عشر من الابل

قالت :

— فارجعوا الى بلدكم وقربوا صاحبكم وقربوا عشرا من الابل ، ثم اضربوا عليها وعليه بالقداح ، فان خرجت على صاحبكم فزيدوا من الابل عشرا فعشرا حتى يرضى ربكم ، وان خرجت على الابل فانحروها عنه ، فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم »

ولم يكد الغلام يتم قصته ، حتى سمعت نساء « وهب » ضجة عالية تقترب ، فقمن يستطلعن الخبر ، فاذا جماعة من وجوه « هاشم وقريش » ، يتقدمهم « عبد المطلب » والى يمينه ... « عبد الله » وهم يقتربون من بيت سيد « زهرة »

اذن فقد نجا فتى هاشم !

ما أوسع رحمتك يا رب !

وهمت « آمنة » بأن تسعى الى أبيها لتسأله كيف كانت النجاة ، لولا أن فوجئت بأبيها نفسه يقف بباب الدار مرجبا بالوافدين الكرام

العرس

« ثم انصرف عبد المطلب آخذاً
بيد عبد الله - اثر افتدائه من
الذبح - فخرج حتى أتى به وهب
ابن عبد مناف بن زهرة . . . وهو
يومئذ سيد بنى زهرة نسباً
وشرفاً ، فزوجه ابنته آمنة . . . »
ابن اسحاق

فيم كان مقدمهم ؟

لم يطل بآمنة الوقت لتعرف الخبر السعيد ، فلقد أقبلت
عليها أمها « برة » بعد قليل ، متهللة الوجه مشرقة
الأسارير ، لتحدثها عن « عبد الله » كيف افتدى من النحر :
« قام عبد المطلب يدعو الله ، ثم قربوا عبد الله وعشرا
من الابل ، وضربوا فخرج القدح على عبد الله
فزادوا عشرا من الابل وقام عبد المطلب يدعو ربه ، ثم
ضربوا ، فخرج القدح على عبد الله
فزادوا عشرا أخرى وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم
ضربوا ، فخرج القدح على عبد الله . . . »

« تم ما زالوا يزيدون عشرا بعد عشر ، فيخرج القدح على عبد الله ... »

« حتى بلغت الابل مائة ، وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج القدح على الابل ، فهتفت قریش ومن حضر :
— قد انتهى رضا ربك يا عبد المطلب !

فهز رأسه في ارتياب ثم قال :

— لا والله حتى أضرب عليها ثلاث مرات !

« ف ضربوا على عبد الله وعلى الابل المائة ، وقام « عبد المطلب » يدعو الله ، فخرج القدح على الابل ، ثم عادوا الثانية ،
فالثالثة ، والقدح يخرج عليها !

« واذ ذاك اطمأن قلب الشيخ المؤمن ، ونحرت الابل ثم تركت لا يصد عنها انسان ولا سبع ! »

وسكتت الأم « برة » وقد بان عليها أنها لاتزال تطوى الذى جاءت من أجله ، وراحت ترقب أسارير ابنتها « آمنة » فى لهفة ، لكن الفتاة أفلحت فى أن تخفى رغبتها فى معرفة بقية الحديث ، وراء قناع رقيق من المداراة ، ودلها قلبها على أن أمها ما جاءت تقص عليها قصة الفداء الا تمهيدا لشأن آخر أجل وأخطر ...

واذ هما فى مجلسهما ذاك ، ترنو احدهما الى الاخرى كأنما تريد أن تعرف ماذا تخفى ، دخل عليهما « وهب » ليقول لابنته فى رقة وحنو :

« ان شيخ بنى هاشم قد جاء يطلبها زوجة لفتاه عبد الله » !

وعاد من فوره الى ضيفه الكريم ، وترك « آمنة » في شبه ذهول ، ما لبثت أن أفاقت منه على صوت قلبها يخفق عاليا حتى ليكاد يبلغ مسمع أمها الجالسة الى جوارها : أحقا آثرتها السماء بفتى هاشم زوجا ؟

ووضعت « آمنة » يدها على هذا القلب وقد خشيت أن ينم خفقانه عن عنف انفعالها بالذى سمعت ، ولم تفت هذه الحركة أمها . فاحتضنتها في حنو غامر ، خدر مقاومة الفتاة فأسلمت نفسها الى صدر الأم ، وأباحت لقلبها أن يخفق كيف شاء !



وطاب لها أن تبقى هكذا في حضن أمها : صامئة هادئة ، لولا أن سيدات الأسرة توافدن واحدة في اثر أخرى ، مهنئات مباركات

وأحطن بالعروس يتحدثن عما ترامي اليهن من تعرض نساء من قريش « لعبد الله » ووقوفهن في طريقه بين الحرم ودار « وهب » ، يعرضن أنفسهن عليه عرضا صريحا بادی اللهفة

وسمعت « آمنة » من حديثهن ذاك عجبا !

سمعت أن « رقية بنت نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي » القرشية الأصلية ، استوقفت « عبد الله » قريبا من الكعبة فقالت له :

— أين تذهب يا عبد الله ؟
فأجاب في إيجاز :

— مع أبى
قالت « رقية » :
— لك مثل الابل التى نحرت عنك اليوم ، ان قبلت ان
أهب لك نفسى الساعة !
فرد عليها معتذرا فى تल्पف :
— أنا مع أبى ، ولا أستطيع خلافه ولا فراقه ..
وقيل ان « فاطمة بنت مر » — وكانت من أجمل النساء
وأعفن ، أو كانت كما ذكر ابن الأثير ، كاهنة من خثعم —
دعته الى نكاحها فأبى ...
وقيل كذلك ان « ليلى العدوية » عرضت نفسها عليه
يومئذ ، فلم يستجب لها ...



بهذا ومثله كانت النساء يتحدثن الى « زهرة قريش »
حين توافدون عليها للتهنئة
وقائلة تقول :
— اعذرن هؤلاء المتعرضات لعبد الله ، فما راين مثله
وسامة وسحرا
فتعقب أخرى :
— يا للفداء الغالى ! هل سمعتن بأحد افتدى قبله بمائة
من الابل ؟
وتضيف ثالثة :
— هنيئا لك يا « آمنة » ، لقد ظفرت بمن « تقطعت قلوب
سيدات مكة من أجله » !

ترى هل حدث ذلك كله حقا ؟

أكثر المؤرخين الأقدمين يروونه في غير شك ولا ارتياب ،
أما المحدثون فنرى منهم « الدكتور محمد حسين هيكل »
يقرر أن الوقوف لتقصي أمثال هذه الروايات عن تعرض
النساء لعبد الله ، لا غناء فيه ، وكل ما استطاع الدكتور
هيكل أن يطمئن إليه ، هو « أن عبد الله كان شابا وسيما
قويا ، فلم يكن عجبا أن تطمع غير آمنة في الزواج منه ، فلما
بنى بها تقطعت بغيرها أسباب الأمل ولو الى حين »

على حين نسمع « بودلى » يقول في كتابه (الرسول) :
« وكان عبد الله قد اشتهر بالوسامة ، فكان أجمل
الشباب وأكثرهم سحرا وذيوخ صيت في مكة ، ويقال انه
لما خطب آمنة بنت وهب ، تحطمت قلوب كثيرات من
سيدات مكة »

ولو كنا هنا نعرض حياة « آمنة » عرضا تاريخيا بحتا ،
لوجدنا في الوقوف لتقصي هذه الروايات غناء كثيرا ، أما
ونحن نعرض المادة التاريخية عرضا فنيا قصصيا ، فلأمعدى
لنا عن الالتفات الى كل هذا والاهتمام بالصغيرة والكبيرة
فيه ، كيما ننتفع بها في التلوين الفني لصورة التي ولدت
بطلنا الأعظم

ونكاد لا نشك في أن « آمنة » سمعت وهى على وشك
الزفاف ، كثيرا عن تطلع غيرها من القرشيات الى فتاها
الموموق ، وأنها تلقت التهنة الحارة بزواجها من الشاب
الهاشمي الذي ملأ الأسماع بقصة فدائه ، كما ملأ الأعين
بسحر جماله ونضارة حيويته

حتى اذا نفضت النسوة ما لديهن من أحاديث ، غابت
« آمنة » عن المجلس وهى فيه حاضرة : كانت تفكر فى فتاها
الذى لم يكد يفقدى من الذبح حتى هرع اليها خاطبا ،
زاهدا فى كل أنثى سواها ، غير ملق أذنيه الى ما سمع من
دواعى الاغراء !

واستمرت طعم تأملاتها فى زحمة المهنئات ، ولذ لها أن
تغيب عنهن وهى بينهن حاضرة ، فراحت تتمثل « عبد
الله » وهو يدارى عواطفه طويلا فلا يتقدم لخطبتها أو يعرف
مصريه ، حتى اذا نجا لم يهرع الى داره وآله ، وانما كانت
دار « آمنة » قبلته بعد الحرم ، ومقصده اثر النجاة ومبتغاه ،
فهو يسعى اليها لم يكد يطيق الصبر عنها لحظة بعد الفداء
كم فكر فيها « عبد الله » ؟ !

وماذا عانى حين التزم الصمت والانتظار ؟
وكيف يكون لقاؤهما بعد كل الذى احتمله وعاناه ؟ ! -
أسئلة عرضت لآمنة وهى فى حلمها المستغرق ، حتى
أفاقت منه على ضجة الدار تنهياً لعرس عاجل قريب



كانت قصة الفداء قد هزت قلوب المكيين تعلقا بالشاب
الذى مست الشفرة منحره وهو صابر مستسلم لأمر الله ،
راض بقدره ، حتى اذا لم يبق بينه وبين الموت الا قيد
شعرة ، أنقذه الله بأعلى فدية عرفها العرب !
وأضيئت المشاعل فى شتى أرجاء البلد الحرام الآمن ،

وحفلت دار الندوة بوجوه قریش وساداتها ، وسهرت
مسامر البلدة المقدسة تسترجع قصة الذبيح الأول حين
مضى به أبوه « ابراهيم » الى قمة الجبل لكى يذبحه طاعة
وتعبدا ، فافتداه الله بكبش بعد أن كان من الموت قاب
قوسين أو أدنى

انها القصة التى تناقلها آباؤهم وأجدادهم طبقة بعد
طبقة ، وجيلا بعد جيل ، تعود فتمثل على المسرح نفسه
فى البيت العتيق الذى رفع ابراهيم قواعده واسماعيل
والبطل اليوم هو حفيد أصيل من ذرية « اسماعيل »
التي انتشرت فى الارض وتوارثت مجد الجدود

وربما خطر لبعض السمار فى ليلة العرس تلك ، أن
يصلوا ما بين الذبيحين « اسماعيل وعبد الله » ، وربما أبعد
واحد أو أكثر ، فحاول أن يتلمس وراء ستار الغد المحجب ،
ما ينتظر « عبد الله » من أمر ذى شأن ، كذلك الذى كان
لاسماعيل بعد الفداء



واستغرقت الأفراح ثلاثة أيام بلياليها ، كان «عبد الله»
أثناءها يقيم مع عروسه فى دار أبيها على عادة القوم ،
حتى اذا أشرق اليوم الرابع ، سبقها الى داره كى يهيئها
لاستقبال الوافدة العزيزة ، على حين مضت هى فى ذاك
اليوم تملأ عينيها من الدار التى استقبلتها وليدة ورعتها
صبية وفتاة ، وأنضجتها عروسا

ثم راحت تودع أهلها وأترابها وصواحب صباها الغرير .

وشغلها ذلك كله ساعات النهار وقطعة من المساء ، ثم
جمعت نفسها وسارت في رفقة من آلهة متجهة الى دنيها
الجديدة ، وهى تتلفت بين خطوة وأخرى الى الربوع التى
خلفتها من ورائها ، فتحس لفراقها لذعة خفية من شجو
وحنين ، زادهما المساء الساجى مرارة وعذوبة معا !
واستغرقتها مشاعرها ، فأمسكت طوال الطريق عن
الكلام ، وسارت خاشعة مخدرة ، كأنها طيف رقيق
يسرى حالما !

حتى تلقاها « عبد الله » على باب داره متلهفا مشوقا ،
فرفعت اليه وجهها المليح ، وقد أضاءه شحوب خفيف ،
وتألفت في عينيها دمعتان صافيتان كحبتى لؤلؤ ...

وأدرك « عبد الله » ماذا بها ، فلم يشأ أن ينقلها بفتة
من ذكريات ماضيها الذى فارقتة وشيكا ، بل قادها فى رفق
الى رحبة الدار الواسعة ، حيث أعدت هنالك مجالس
للضيوف الأعداء الذين صحبوا العروس الى بيتها
وراح يريها بيتها الجديد

ولم يكن البيت كبيرا ضخما البناء ، لكنه اذا قيس ببيوت
مكة يومئذ ، عد رجبا مريحا لعروسين يبدأن حياتهما
المشتركة

كان (١) - كما وصفه « محمد لبيب البتانونى » فى كتابه

(١) قيل ان الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهب هذه الدار لابن
عمه « عقيل بن أبى طالب » الذى صرع بالكوفة قبيل مذبحة كربلاء ، فباعها
ولده لمحمد بن يوسف الثقفى أخى الحجاج ، فلما بنى داره المشهورة بدار
ابن يوسف ، أدخل دار عبد الله فيها وكانت الى جوارها ، حتى اشترتها
« الحيزران » وفصلتها وأعادت بناءها كما كانت ، وجعلتها مسجدا

(الرحلة الحجازية) - ذا درج حجرى يوصل الى باب يفتح
من الشمال ، ويدخل منه الى فناء يبلغ طوله نحو اثنى عشر
مترا فى عرض ستة أمتار ، وفى جداره الأيمن باب يدخل
منه الى قبة فى وسطها - بميل الى الحائط الغربى -
مقصورة من الخشب ، أعدت لتكون مخدع العروس

وترك « عبد الله » عروسه فى مخدعها مع رفيقاتها من
سيدات « آل زهرة » ، ثم خرج الى رحبة الدار الواسعة ،
حيث الضيوف الاعزاء الذين صحبوا العروس الى بيتها
ومضى وهن من الليل والقوم ساهرون ، يباركون العتبة
الجديدة التى انتقلت اليها زهرة قريش ، ويدعون للزوجين
الكريمين : أعز من عرفت الحجاز حسبا وأعرقهم نسبا



البشرى

وسمعت هاتفا يهتف بها فى
رؤياها :
« انك قد حملت بسيد هذه
الأمة »

ثم آب الضيوف الى منازلهم ، وهجع الكون وسكنت
الدنيا ، و « عبد الله » جالس الى « آمنة » يؤنسها بحديث
شائق عما رأى فى رحلته الى كاهنة الحجاز
سألته العروس وقد أنساها لطفه ما كانت تحسه من
شجن لفراق آلهة :

— هلا حدثتنى يا عبدالله عن أولئك النسوة اللاتى شغلنك
فى أيامك هذه ؟

فانبسط أسارىره لاقبالها عليه وقال يجيبها :
« ما شغلننى عنك قط يا آمنة ، ولكنه الذى سمعت من
تعرضهن لى ، وانصرافى عنهن اليك وحدك !

« على أن للقصة بقية لما تسمعى بها ، لانها حدثت فى
يومنا هذا اذ كنت عائدا من بيت أبىك لكى أهىء دارى
لاستقبال ملكتها الغالية ، وشغلت بهذا يومى كله ، فلم
أكد أحدث أحدا بما كان ! »

قالت وقد استشار أشواقها لمعرفة القصة :

— أخاطبات جديديات يطلبن القرب من فتى مكة الأوحـد ؟

فتبسم ضاحكا من دعابتها الحلوة وأجاب :

— كلا يا آمنة ، بل زاهدات فيه منصرفات عنه ، كأن

لم يكن هو نفسه الذى تعلقن به منذ بضعة أيام ، وأنستهن

رغبتهن فيه ما عرف عن مثلهن من صد وتمنع !

وأمسك فترة يرنو الى صاحبتـه ، كأنه يريد أن يلمس

وقع الحديث عليها ، فما زادت على أن أومأت اليه ليمضى

فى قصته

فاستجاب لآيماءتها واستطرد يقول :

— أجل يا ابنة وهب ! زاهدات فى فتاك كأنه أبـدل خلقا

جديدا : مررت بهن اليوم فى طريقى بين دار أبـيك ودارنا

هذه ، فأشحن عنى بوجوههن معرضات ، الى حد أن دفعنى

الشوق لمعرفة سر هذا الانقلاب ، الى أن أسأل احداهن

« رقية بنت نوفل » :

« مالك لا تعرضين على اليوم ، ما كنت عرضت على

بالأمس ؟ »

فكان جوابها العجيب أن قالت :

« فارقك النور الذى كان معك بالأمس ، فليس لى بك

اليوم حاجة ! »

وكذلك أعرضت عنى « فاطمة بنت مر » قائلة : « يا فتى ،

ما أنا بصاحبة ريبة ولكنى رأيت فى وجهك نورا فأردت أن

يكون لى ، فأبى الله إلا أن يجعله حيث أراد ، فما صنعت

بعدى ؟ »

قلت : « زوجنى أبى آمنة بنت وهب »
فأنشدت :

لله ما « زهرية » سلبت
منك الذى استلبت وما تدرى !
ولما سألت الثالثة : « لىلى العدوية » ماذا صدها عنى ؟
أجابت :

« مررت بى وبين عينيك غرة بيضاء ، فدعوتك فأبيت
على ، ودخلت على آمنة فذهبت بها »



وصمت « عبد الله » وسكنت العروس ، وقد راحا
يفكران فى ذلك الموقف الغريب الذى وقفته نسوة قریش
من « عبد الله »

ثم كانت « آمنة » هى التى قطعت الصمت فجأة ، بأن
طلبت من زوجها أن يعيد عليها ما كان بينه وبين « رقية »
بنت نوفل «

فتسألت « عبد الله » وقد رآه ما يبدو عليها من اهتمام :
— ولماذا تسألين عن رقية هذه دون سواها ؟
أجابت « آمنة » فى جد :

— ستعرف بعد ، فهلا أعدت لى ما قالت « رقية » ؟
فلم يسمع « عبد الله » الا أن يقول :

— سألتها : مالك لا تعرضين على اليوم ما كنت عرضت على بالأمس ؟

فأجابت : فارقك النور الذى كان معك ، فليس لى بك اليوم حاجة

فعلقت « آمنة » بعد فترة تأمل :

— والله يا ابن العم ، انى لأرى لهذا الأمر ما بعده ، فرقية أخت « ورقة بن نوفل » وهو — كما تعلم واعلم — قد تنصر واتبع الكتب ، وبشر بأن سيكون فى هذه الأمة نبي ! فحذق « عبد الله » فى زوجته مليا ثم هتف :

— ترين يا آمنة أننا ...

فلم تدعه « آمنة » يكمل عبارته ، واستغرقت فى حلم شائق مشير ، استعادت فيه كل الذى كانت الجزيرة تمتلئ به من شائعات وأرهاصات عن النبي المنتظر !



ونامت ليلتها ، وما تكف هذه الرؤيا عن الالمام بها ، و « عبد الله » الى جانبها ساهر يقظان ، يرقب فى نور الفجر الوليد تلك الابتسامة الرقيقة التى يتألق بها وجهها الحلو ، وهى نائمة

حتى اذا دنا الصبح ، استيقظت العروس « آمنة » من نومها الهنيء وأقبلت على زوجها تحدثه عن رؤياها :
رأت كأن شعاعا من النور ينبثق من كيانها اللطيف فيضيء الدنيا من حولها حتى لكأنها ترى به قصور بصرى من أرض

الشام . وسمعت هاتفا يهتف بها : « انك قد حملت بسيد
هذه الأمة ... »



وبقى « عبد الله » مع عروسه أياما لم يحدد لنا التاريخ
عددها ، ولكنها عند جمهرة المؤرخين لم تتجاوز عشرة
أيام ، اذ كان عليه أن يلحق بالقافلة التجارية المسافرة الى
الشام

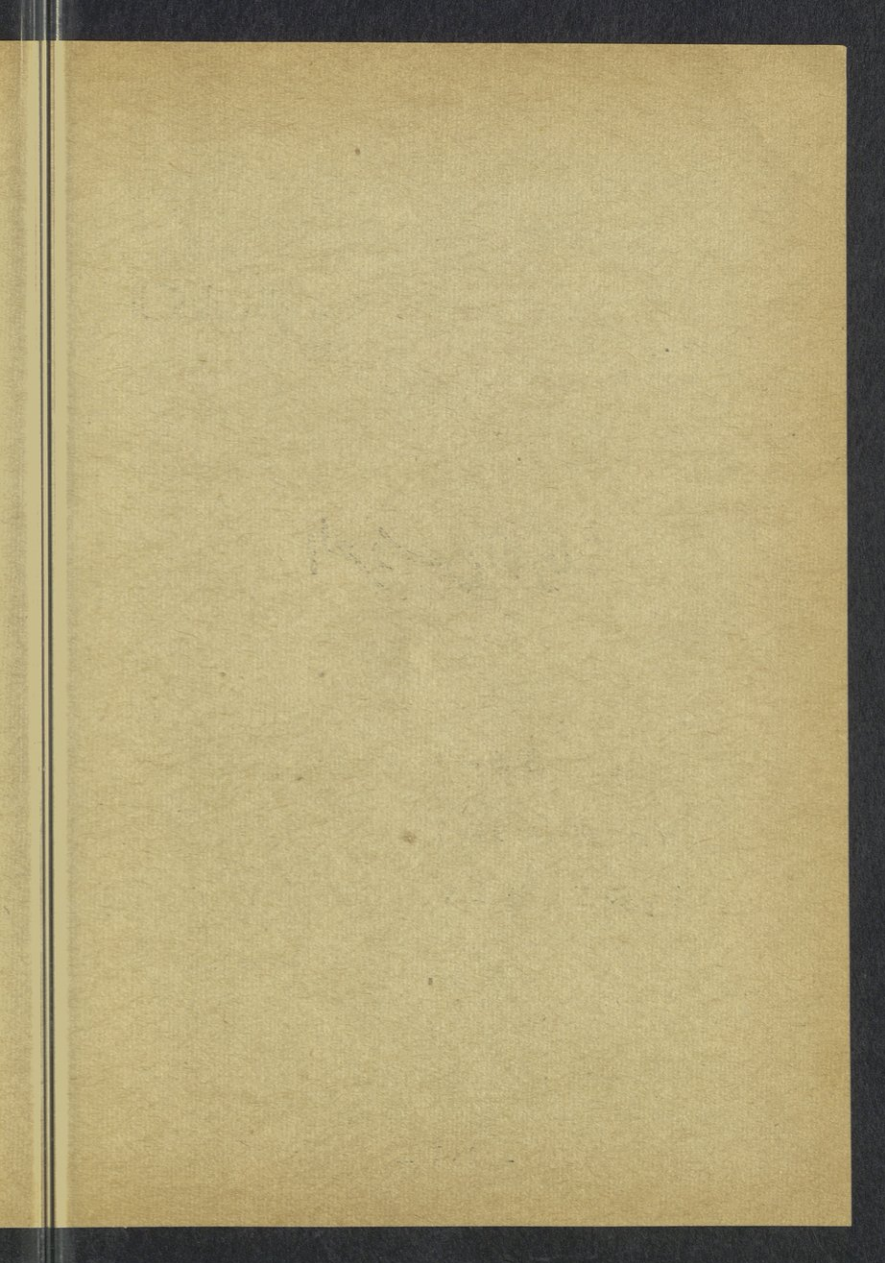
وأغلب الظن أن كلام « رقية بنت نوفل » عن النور الذي
فارق عبد الله الى آمنة ، قد شغل أويقات السمر في تلك
الأمسيات المكدودات التي قضاها العروسان معا قبل أن
يفترقا ، وأن الأحلام قد حلقت بهما في آفاق عليا ، خايلتهما
فيها أمنية عزيزة غالية ، قل من شارفها أو طمح اليها



الكتاب الرابع

العروس الأرملة

- ١ - فراق
- ٢ - رسول الى يشرب
- ٣ - غائب لا يثوب !



فراق

ثم حانت ساعة الفراق !

وودع « عبد الله » زوجته الحبيبة حين اذن المؤذن برحيل القافلة ، فتشبثت « آمنة » بفتاها وقد أحست كآبة غامرة شحب لها وجهها وارتعد كيائها ، فربت « عبد الله » على يدها الصغيرة في حنو ، وهو يظن أن الذي بها لا يعدو أن يكون وحشة الفراق الوشيك

ثم انتزع نفسه منها انتزاعا ، ووقف في فناء الدار يقول لها وهو يتكلف التصبر ويتجمل بالمداواة :

— ان هي الا بضعة أسابيع ، ثم أعود اليك يا آمنة على جناح الشوق واللهفة

فهمست في صوت أبح مختنق :

— وماذا أصنع بنفسى وانت بعيد ؟

اجاب متضاحكا :

— تسامرین طیفی الذی لن یبرح مطیفا بک محوما علیک ، وترعین قلبی الذی ادعه هنا وأسافر بجسم ینزع أبدا الى اعز موضع ، ویجن الى أحب وأجمل من خلق الله !
فتراحت يداها وأنت في ضعف :

— ويلي يا عبد الله من ليالى الطوال !

فصاح بها وهو يخطو نحو باب البيت ووجهه اليها :

— لا ويل لك يا آمنة ! ستشاغلك طوال لياليك أحلام عذاب . أفنسيت حديث « رقية بنت نوفل » ورؤيا الأمس القريب ؟

واذ بلغ الباب ، انفلت مسرعا قبل أن تخونه شجاعته وتغلبه عواطفه ، على حين بقيت « آمنة » حيث كانت ، واقفة بباب مخدعها المقفر ، وقد وضعت يدها على قلبها خشية أن يتصدع ...

وأدركتها بعد ساعة جارتها « بركة أم أيمن » فقادتها برفق الى فراشها ، ثم جلست الى جانبها ترعاها مشفقة عليها مما تلاقى ...



ومرت أيام وليال ، و « آمنة » فى فراشها لا تبرحه ، تسامر أشجانها وترسل قلبها فى اثر الحبيب الراحل . وقد حاول أهلها ، كما حاول « عبد المطلب » أن يصرفوها عن وحدتها حرصا على صحتها ، لكنها آثرت العزلة على الأنس بالأهل والصواحب ، بل لعلها كرهت أن يفسد أحد عليها هذه العزلة ، لما كانت تجده فى مسامرة طيف الغائب ، من شجن ولذة



ومضى شهر لا جديد فيه سوى أن « آمنة » شعرت

بالبادرة الاولى للحمل ، فودت لو طارت بالبشرى الى
« عبد الله » ثم استعادت شيئاً من اشراقها ، وقد هون عليها
مرارة الفراق أن أكثر أيامه قد تصرمت ، وأن كل يوم
يدنيها من اللقاء المنتظر ، ويزيدها يقيناً من الحادث السعيد
الذى ترجو أن تلقى به زوجها فى اللحظة التى يؤوب فيها !



وأهل الشهر الثانى أو مضت قطعة منه ، وأن للقافلة
أن تعود ، فتهيأت « آمنة » للقاء وشيك ، وراحت تعد
مابقى من أيام وليال ، وتتمثل زوجها وقد عاد اليها متلهفاً
يحدثها عما لقى فى بعدها من حر الشوق ولوعة الحنين .
ولكن هل تراها تستطيع أن تصبر فلا تفاجئه ببشرها ؟
أم هل تراها قادرة على أن تكتم عنه ما تراءى لها من أحلام
اليقظة ورؤى المنام ، ريثما تستمتع بحديثه الشهى العذب ؟
بهذا شغلت « آمنة » فى الفترة التى سبقت عودة
الغائب ، حتى اذا لاحت طلائع القافلة ، خفق قلبها فى عنف ،
ووقفت فى ساحة الدار مما يلى الباب الخارجى ، تنتظر أن
يفتح بين آونة وأخرى ، وتشرق منه طلعة الحبيب
وطال بها الانتظار حتى ساورتها شكوك مبهمة وخوف
طارىء ، فتنبهت فجأة الى غيبة جارتها « أم أيمن » وكانت
قد ذهبت منذ شاع خبر قدوم المسافرين ، كى تعود فتبشر
سيدتها على عجل بأنها رأت « عبد الله » رأى العين ،
وتصف لها حاله بعد غيبة طالت !
وتناهى الى اذنيها ضجيج اللقاء فى الدور المتاخمة

لدارها ، فأين عبد الله ؟ ما الذى أمسكه عنها فلم يخف اليها
طائرا ؟

لعله لقي - فى طوافه بالكعبة اثر عودته - من احتجزه
حيناً

أو لعل أباه الشيخ آت فى صحبتته ، فما يستطيع
عبد الله الا أن يمشى على مهل ، احتراماً لشيخوخة أبيه
أو لعل ...



رسول الى يثرب

واخيرا ، أحست خطوات وانية تدنو من الدار ، فتعلقت عيناها بالباب وهى لا تكاد تتماسك من انفعال ، حتى اذا فتح الباب بعد لحظة طالت كأنها دهر ، خذلتها قدمها ، فتسمرت حيث هى : واجمة خائفة !

لم يكن « عبد الله » هو القادم ، وانما جاء « عبد المطلب » الشيخ فى صحبة أبيها « وهب » ونفر من الأهل الأدين ، وقد غشيت وجوههم جميعا غاشية من القلق

وكانت « أم أيمن » تمشى فى أثرهم متخاذلة مطرقة ، تحاول أن تخفى دمعة أفلتت من مقلتيها

وقال « وهب » وهو يتحاشى النظر الى وجه ابنته :

— بعض الشجاعة يا آمنة ، فما فى الأمر ما يدعو الى مثل ذلك الجزع الأليم . لقد عادت القافلة وكنا فى انتظارها بالحرم ، فلما افتقدنا « عبد الله » أخبرنا رفاقه أن وعكة طارئة ألمت به وهو فى طريقه إلينا ، وعما قريب يبرأ ويعود سالما اليك والى مكة وقريش

وانحلت عقدة ربطت لسان « عبد المطلب » فعقب قائلا :

— هو ذاك يا آمنة . . . وعكة بسيطة ولا شئ أكثر .
وقد قال الرفاق : « خلفناه يثرب عند أخواله من بنى

مخزوم » فبعثت اليه أخاه الحارث ، كى يكون معه ، ويصعبه
فى طريقه إلينا ، فثوبى الى صبرك ، وادعى له ... »
قالت فى ضعف :

— أفعل يا عم !

وانصرف من فورها الى الصلاة والدعاء ، فلم تكد تشعر
بالقوم حولها ، حتى غادروها الى الكعبة خاشعين ضارعين



وأنتم الشهر الثانى دورته ، و « آمنة » على حالها تجاهد
ما استطاعت أن تذود عن قلبها اليأس ، فاذا عز عليها ذلك
لاذت بالدعاء ، لعل الله يرد عليها ذاك الغائب الذى افتدى
بالأمس أغلى فداء ...

وكانت تعاودها — فى لحظات نومها القصيرة — رؤيا
ملحة ، عن جنين عظيم تطويه أحشاؤها ، وتسمع الهاتف
يبشرها بأمجد بنوة ، فاذا آبت الى يقظتها ، شق عليها ألا
تجد « عبد الله » بجانبها ، تفضى اليه بالذى ترى وتسمع

غائب لا يثوب

ثم ...

عاد « الحارث بن عبد المطلب » وحده ...

عاد لينعى أخاه الشاب ، الى أبيه الشيخ ، وزوجه
العروس ، والقرشيين جميعا ...

لقد فاله الموت وهو بين أخواله من بنى مخزوم ، اثر رحيل
القافلة التى تخلف عنها

ودفن هناك - على أرجح الأقوال - ولم يقبل فيه هذه
المرّة أى فداء !



ووجمت « آمنة » للخبر ، وقست عيناها فما تسعفانها
ببكاء

واعفاها ذهولها من الانهيار والتصدع ، فلبثت أياما لاتكاد
تصدق النعى ، حتى اذا تيقنت من الكارثة ، فاضت
عبراتها ، وقيل انها رددت فى لوعة :

عفا جانب البطحاء من زين هاشم
وجاور لحدا خارجا فى الغمام

دعته المنايا دعوة فأجابها
وما تركت في الناس مثل ابن هاشم
عشية راحوا يحمّلون سريره
تعاوره أصحابه في التراحم
فان تك غالتـه المنون وريبها
فقد كان معطاء كثير التراحم
ثم أمسكت لا تزيد



ولبست « مكة » كلها ثوب الحداد على فتاها الذي غالتـه
المنون غريبا ولما ينزع عنه ثوب العرس ، وضحلت من النواح
عليه حلوق بحث من الهتاف له حين احتفلت بفدائه منذ
شهرين وأيام ...

كانت سنه اذ ذاك ، ثمانية عشر عاما ، فيا للشباب الفتى
النضير ، يهتصره الموت اثر فرحة الفداء !
ويا للعروس الشابة ، تترمل هكذا سراعا ، وما يزال في
يديها خضاب العرس !

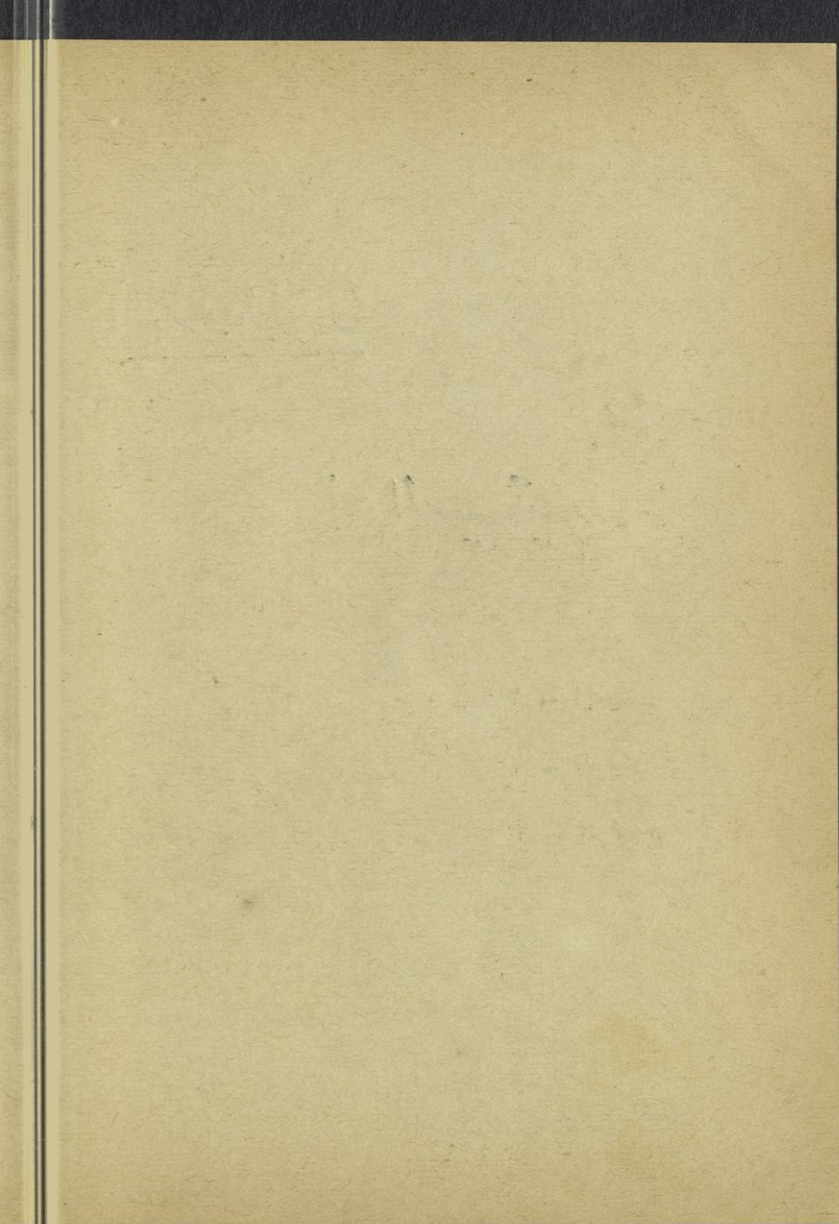
الكتاب الخامس

أم اليتيم

١ - الجنين

٢ - الوليد

٣ - الرضيع



الجنين

أشرق النور فى العوالم لما
بشرتها بأحمد الانبياء
« شوقى »

وفض الماتم ..
لكن القوم لم يفرغوا من صاحبه الشاوى فى لحده بعيدا
بيشرب

كانوا فى حيرة من أمره :
ما دام الله قد كتب عليه الموت هكذا سريعا ، ففيم كان
الفداء ؟

من كان يظن ، حين نحرث الابل المائة بالحرم ، وتركت
لا يصد عنها انسان ولا سبع ، أن المنايا واقفة بالمرصاد
للذبيح المفتدى ، على قيد خطوات معدودات ؟
بهذا شغل القوم

وفى مثله كانت « آمنة » تفكر وهى فى وحدتها تجتر
أحزانها ، وتكابد الذى تجد من لوعة المصاب ، حتى خيف
عليها الهلاك فتتابع أهلها يحاولون أن يعزوها ، وهى تأبى
أن تقبل فى « عبد الله » عزاء ..

وناشدوها الصبر الجميل ، فأنكرت على نفسها الصبر ،
ووجدت فيه جحودا وغدرا بالحبيب الذى رحل
وأوجس « آل هاشم وزهرة » فى نفوسهم خيفة ، أن
تشتد وطأة الحزن على « آمنة » فتذهب بها ، ولبثت « مكة »
شهرًا وبعض شهر ، وهى ترقب فى قلق ، الى أين تنتهى
الأحزان بالأرملة العروس ...



حتى كانت ليلة من ليالى شوال ، أحاط فيها العواد
بفراش « آمنة » وهى فى غمرة أحزانها لا تفتأ تسائل كل
وافد ووافدة من أهلها :

— فيم كان فداؤه اذن ، ما دام الله قد كتب عليه الموت
العاجل ؟

— فيم كان العرس الحافل ، ويد القدر تحفر له لحده
بيثرب ؟

ثم أدركها الاعياء فأغفت مجهدة والعيون ترقبها فى
حنان وقلق وارتياح ، على أنها ما لبثت أن صحت من غفوتها
وقالت لمن حولها :

« كأننى عرفت سر الذى كان : ان عبد الله لم يفقد من
الذبح الا المهمة عظمى ! لقد أمهله الله ريثما يودعنى هذا
الجنين الذى أحسست به اللحظة يتقلب فى أحشائى ، والذى
من أجله يجب أن أعيش ... »

ومن تلك اللحظة الحاسمة ، أنزل الله سكينته على « آمنة »

فطوت أحزانها في أعماقها ، وبدأت تفكر في ابنها الذي
يحيا بها ويحييها ...

ولا أستطيع أن أنتقل الى الحديث عن أمومة « آمنة »
قبل أن أقف لحظة لأشير الى اختلاف الروايات في وفاة
« عبد الله » :

هل كانت والابن جنين في رحم أمه ؟

أو كانت بعد أن وضعت ؟

الاعرف بين جمهور المسلمين ، أن الرسول ولد يتيما ،
وقد اكتفى بهذا « ابن اسحاق » دون أن يشير الى أى خلاف
فيه . قال :

« ... ثم لم يلبث عبد الله بن عبد المطلب أبو رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، أن هلك وأم رسول الله صلى الله عليه
وسلم حامل به »

ونقل « ابن هشام » عبارته هذه ، من غير أن يضيف
اليها أو يعلق عليها بما يشعر أن القوم على عهده اختلفوا
في هذا

ونقل « ابن الاثير » في (الكامل) أن « الزهرى » قال :

« أرسل عبد المطلب ابنه عبد الله الى المدينة يمتار لهم
فمات بها ، وقيل بل كان في الشام فأقبل في غير
قريش فنزل بالمدينة وهو مريض ، فتوفى بها .. قبل أن
يولد رسول الله صلى الله عليه وسلم »

كما نقل في موضع آخر (١٣/٢) أن « أبا طالب » قال
للراهب « بحيرا » عندما سأله عن محمد : « انه ابن أخى ،
مات أبوه وأمّه حبل به »

لكن « السهيلي » نقل في (الروض الانف) : أن « أكثر العلماء على أن عبد الله مات والرسول في المهد : قيل ابن شهرين ، وقيل أكثر من ذلك . . . وقيل مات أبوه وهو ابن ثمان وعشرين شهرا »

ونقل ناشرو (السيرة) بالهامش عبارة « السهيلي » التي ذكرناها آنفا ، بلا محاولة لتحقيقها

وأشار « البرزنجي » في (مولده) الى الخلاف اشارة عابرة فقال :

« ولما تم لحمله شهران على مشهور الاقوال المروية ، توفي بالمدينة المنورة أبوه عبد الله ، وكان قد اجتاز بأخواله في مرضه عائدا من الشام » - ص ١٢

وعلق « عlish » على هذا في شرحه للمولد ، فذكر من الاقوال المروية التي أشار اليها البرزنجي : أن أبا الرسول توفي وهو ابن سبعة أشهر ، وقيل ابن ثمانية وعشرين شهرا . . .



وندع هؤلاء الى المحدثين ، فنجد عند أكثرهم اطمئنانا الى رواية من قالوا ان عبد الله توفي وابنه جنين . قال بودلى :

« وكان عبد الله بن عبد المطلب أحب أبنائه اليه ، وكان من المرجح أن يرث مركز أبيه وماله ، لكن الموت لم يمهله ، فقد خطفه في يثرب وهو في رحلة تجارية ، عقب زواجه من « آمنة » ولم يقدر له أن ينعم برؤية ابنه الذي رأى النور

فى أغسطس سنة ٥٧٠ م بعد وفاته بشهور « - ص ٢٨
و « فيليب حتى » فى (تاريخ العرب : ١٣٥ من الطبعة
الثانية للترجمة العربية) يذكر موت عبد الله قبل مولد
ابنه ، ثم لا يشير الى خلاف فى ذلك

وتحدث « الدكتور هيكل » مطمئنا غير مرتاب ، عن سفر
عبد الله الى الشام فى رحلته الأخيرة ، تاركا « آمنة » حاملا ،
وقد تقدمت بها أشهر الحمل من بعده حتى وضعت فبعثت
الى عبد المطلب عند الكعبة ، تخبره أنه ولد له غلام

غير انا نجد عن بعض المفكرين المحدثين - أذكر منهم
أستاذنا أمين الحولى - ميلا الى الرواية القائلة بأن محمدا ولد
قبل أن يموت أبوه، وهم لا يستندون فى ذلك الى دليل نقلى ،
بقدر ما يستأنسون بما اطمأن اليه علم النفس الحديث من
صلة الجنين بأمه ، وأثر حالتها المعنوية على كيانها كله :
جسما وخلقاً وأعصابا • وحياة « محمد » - صلى الله عليه
وسلم - تشهد بسلامة بنائه وصحة أعصابه ، فلقد خاض
معارك تكفى واحدة منها لامتحان أصلب الرجال عودا
وأثبتهم جنانا وأجلدهم أعصابا ، فكان فيها جميعا البطل
المظفر ، وهذا - عندهم - يرجح ، ان لم يثبت ، أن أمه
لم ترورع وهى حامل بموت زوجها ، بل أمضت أشهر الحمل
آمنة مطمئنة هادئة ، لا يثودها حزن ولا يمضها ثكل ولا
يرهقها شجن

ولا نمارى فيما لهذا رأى من قوة ووجاهة ، لكن يعوزه
الدليل النقلى الذى نعهده حاسما فيما نحن فيه ، فلقد رأينا
أكثر الرواة الاول ، لا يشيرون الى خلاف فى أنه صلى الله

عليه وسلم ولد يتيما ، وهذا هو الذى حملنا على أن نلوذ
بالفن لكى نحمل الرواية المشهورة أقصى ما تطيق احتمالاه
من توفير الراحة النفسية للآم الحامل ، رغم حزنها الثقيل
وثكلها المفجع ، فاطمأنا الى أن الجنين نفسه ، كان عاملا
هاما فى عزائها ، وأن شعورها به يتقلب بين أحشائها ،
قد آنس وحشتها وهون عليها ما كانت تلقى من حزن لعله
كان يكفى لأن يتلفها ، لو لم ينزل الله سكينته عليها ،
ويملا دنياها بهذا التراث الحى الغالى الذى أودعه عبد الله
اياها قبل أن يموت ، فعاشت به وله ...

تسامعت بيوت « مكة » بالنبأ السعيد ، فتوافدت عقائل
« قريش » على دار الفقييد ، يهنئن « آمنة » ويصغين الى
ما سمعت من بشرى

وكثر الحديث عما ملاّ الجزيرة من أقوال عن نبى منتظر
تقارب زمانه ، يتحدث بها الاخبار من يهود ، والرهبان
من النصرارى ، والكهان من العرب

ولعل العرب لم يلقوا بالا - أول الأمر - الى هذا الذى
ذاع وانتشر ، غير أنى أكاد أطمئن الى أن « آمنة » قد ألفت
كل بالها الى تلك الذائعات ، فما نسيت قط أن زوجها هو
الذى استأثر من دون شبان قريش ورجالها بمجد الفداء
الذى لم يحدث منذ افتدى اسماعيل

وقد بقى فى مسمعا صدى قوى رنان ، مما ذكرته أخت
ورقة بن نوفل وفاطمة بنت مر - وقد كانت فيما روى ابن
الاثير كاهنة من خثعم - عن النور الذى انتقل من « عبدالله »
اثر زواجه ، والغرة التى ذهببت بها « بنت وهب » فلم تدع

لغيرها من النساء فى « عبد الله » مأربا . . .
ثم هى قبل هذا كله ، سيدة من صميم البيئة الرفيعة
الحاكمة فى مكة ، ومن شأن نساء هذه البيئة ، أن يرنون
الى بعيد ، وأن يرجون للأجنة فى بطونهن مجدا لم يسبق
اليه أحد



وكثير من المؤرخين المسلمين ، نقلوا عن لا يهتمون من
الرواة ، ما تراءى « لآمنة » فى أحلامها من بشرى بابن
عظيم ، وان يكن « الدكتور هيكل » قد مر بهذا عابرا دون
أن يشير اليه فقال :

« وتقدمت بآمنة أشهر الحمل حتى وضعت كما تضع
كل أنثى » - ص ٦٩

وأكثر المستشرقين ، يأبون روايات البشرى اباء صريحا ،
حتى « بودلى » - وهو من أكثرهم انصافا واعجابا بالرسول -
رفض أن يقبل النى قيل فى رؤى « آمنة » عندما حملت
بمن صار نبيا . قال فى كتابه (الرسول) :

« لا توجد أسرار تحيط بمولد النبى ، اذا استثنينا عدة
خرافات لا يقبلها عقل : فما كان هناك بشائر على أنه
المصطفى من الله ، ولا زارت الملائكة أمه قبل مولده ، ولا
بشرتها بقدمه . . . وانما حملته أمه ووضعته كما تحمل
كل أنثى وتضع » (ص ٢٥ من الترجمة العربية)

وانى ليدهشنى أن يصدر مثل هذا الحكم من رجل مثل
« بودلى » أعرف فيه الاعتدال ونضوج الرأى . لقد قرر أن

محمدا « حملته أمه ووضعت كـما تحمل كل أنثى وتضع »
فما باله ينكر عليها ما يجوز على كل أنثى تحمل وتضع في
مثل ظروف « آمنة » ؟

لماذا يسمى ما روى عن أحلامها ورؤاها « خرافات
لا يقبلها عقل » ؟

أو ليس من حقها - ككل أنثى مثلها - أن تحلم للجنين
الذى يتقلب في أحشائها ، بمجد عريض ؟

لو أن « بودلى » استفتى علماء النفس ، لأنكروا
عليه أن يسمى أحلام « آمنة » خرافات ! وانما
الخرافة حقا أن نجردها من بشريتها وأمانى أمومتها ، فما
من أنثى تحمل ، الا حملت لوليدها بأقصى ما تسمح به
بيئتها وظروفها ، وقد كانت بيئة « آمنة » ما نعرف عزا
وشرفا وعراقا وحسبا ، كما حفت بزوجها « عبد الله بن
عبد المطلب بن هاشم » ظروف فريدة لم يشاركه فيها
سواه ، فأى عجب في أن تبعد بآمنة أحلامها فتسمع من
يبشرها بأنها ستلد « سيد هذه الأمة » ؟

أو ليست أحق بهذا من « هند بنت عتبة » التى ردت على
من بشرها بأن ابنها سيسود قومه قائلة : ثكلته أمه ان لم
يسد الا قومه ؟

اننا لا نقول لبودلى وأمثاله : ان النساء قبل « آمنة »
وبعدها ، قد عرفن ويعرفن فى حالة الحمل ، الهواتف
والاحلام ، ولا نرغمهم على تصديق ما ذكره رواة العرب من
أن « ليلي بنت مهلهل » هتف بها الهاتف حين حملت بابنها
« عمرو بن كلثوم » :

يا لك ليلى من ولد
يقدم اقدم الأسد
من جشم فيه العدد
أقول قولا ، لا فند

فلما استكمل وليدها سنة أتاها ذلك الهاتف ليلا فقال:

انى زعيم لك «أم عمرو»
بماجد الجد كريم النجر
أشجع من ذى لبد هزبر
يسودهم فى خمسة وعشر

قالوا : فساد قومه ولم يجاوز خمس عشرة سنة
وكذلك رووا أن « عتبة بنت عفيف » أتاها الهاتف حين
حملت بابنها « حاتم الطائي » فسألها :
- أغلام سمح يقال له حاتم أحب اليك ، أم عشرة غلمة
كالناس ؟

فأجابت : بل حاتم !
و « خبيثة بنت رباح الغنوية » ، حدثوا أن هاتفها هتف
بها فى منامها ذات ليلة :
- عشرة هدره (جمع هادر وهو الساقط) أحب اليك
أم ثلاثة كالعشرة ؟

وعاودها ثانية ، فقصت رؤياها على زوجها فقال لها :
- ان عاد الثالثة فقولى : ثلاثة كعشرة
ففعلت ، وولدت خالدا ، ومالكا ، وربيعه ، وعدت بهم
احدى منجبات العرب

بل لا نقول لمن أنكروا على « بنت وهب » أحلامها : ان
الحوامل قبلها وبعدها ، والى يوم تنتهى الحياة على هذه
الأرض ، قد عرفن ويعرفن الهواتف والأحلام
وانما حسبنا أن نقول لبودلى :

- انك قد اتخذت من كتاب السيرة والمؤرخين
الاسلاميين الأول ، مرجعك فى كتابك عن « محمد » ،
وزدت فاعتمدت أقوال العرب الذين عاشوا ويعيشون اليوم
فى الجزيرة حيث عاش الرسول ، وكانت حجتك : « أنهم
لا يتحدثون عن محمد كما يتحدثون عن شخص غامض بعيد
أبدا ، لقد كان راعيا ، ارتدى نفس الثياب التى يلبسونها
وامتطى ابلا كما يفعلون ، وكان التمر الذى عاش عليه
يشابه تمرهم • انهم ليشاركونه فى كل ما فعله ، فهو
بالنسبة لهم حى كفرد منهم

» لذلك كانت استعادة ذلك المشهد الذى مر عليه ثلاثة
عشر قرنا بالنسبة لى ، أيسر من وصف جامعى من
اكسفورد ، الحياة فى عصر اليزابيث ، وأبسط من كتابة
مؤرخ أمريكى عن الولايات المتحدة قبل حرب الاستقلال
» عاش أناس كثيرون من أصحاب محمد بعده ، فرووا
ذكرياتهم عنه لذرياتهم ...

» انى أعرف العرب عن كئيب ، وانى أحبهم ، وقد عشت
فى خيامهم وأحببتها • وأظن أنى أستطيع أن أفكر كما
يفكر محمد ، وأحس كما يحس ، وأفهم على التحقيق
مشكلاته »

فما بالك بعد هذا تنكر اجماع كتاب السيرة على ما رأت

« آمنة » من بشائر بمولد ذاك الذى كانت الجزيرة ملائ
بالارهاصات عن قرب مولده ؟

الحق انى لا أستطيع أن أنكر من ذلك كله شيئاً ، فمبلغ
الأمر فيه أنه حالة تعرفها كل أنثى من البشر عانت تجربة
الحمل ، واشتهت أن يبلغ ولدها من المجد ما يسبق به
قرناه ورفاقه ، وانما يختلف مدى الطموح ومجال الأحلام ،
على قدر ما تسعف عليه ظروف كل أم ، وتحتمله امكانياتها ،
ويمتد اليه بصرها !

وهذه « آمنة » بنت سيد بنى زهرة ، تزوجها « عبد الله
ابن عبد المطلب » اثر افتدائه من النحر على نحو يذكر بجده
الأعلى اسماعيل ، تزوجها « وهى يومئذ - كما يقول ابن
اسحق ، شيخ كتاب السيرة - أفضل امرأة فى قریش
نسباً وموضعاً »

وسمعت « آمنة » ما سمعت من تعرض النساء لزوجها
ثم صدهن عنه لما تزوج بها ، وليكن ذلك - فى أدنى
حالاته - وهما أو تخيلاً ، أفلا يؤثر فيها ذاك الوهم حين
تحمل جنينها الأول : حفيد المنافقين وسليل البيت الهاشمى
وآل زهرة ؟

أفكثير على مثلها أن تحلم ، وأن ترجو لوليدها المنتظر
أقصى ما يرنو اليه خيالها ، ويمتد اليه أملها ؟



والآن فلنعد الى « آمنة » حيث تركناها فى دارها بعد
أن غاب عنها « عبد الله » الى غير مآب ، وخلفها فى حزن
مستبد ، لم تخفف حدته الا حركة الجنين البكر فى أحشائها

حتى اذا أوشك أن يتم أجله ، جاءها « عبد المطلب »
ذات أصيل ، يطلب اليها أن تنهي للخروج من مكة مع
قريش ، حيث رأى لهم أن يتحرزوا في شعف الجبال
والشعاب ، تخوفا من معرة الجيش الذي جاء به « أبرهة
الجبشي » من اليمن

وكانت « آمنة » قد سمعت بقدوم « أبرهة » هذا في جيش
لجب ، لكنها لم تقدر أن الأمر قد بلغ من الخطر حدا يدفع
قريشا الى الخروج من بلدهم الامين
وسألت « آمنة » عبد المطلب :

— علمت يا عم أن قريشا وكنانة وهذيل ومن بالحرم من
سائر الناس ، قد أجمعوا على قتال الطاغية ، فما الذي جد
في الموقف حتى يتركوا الكعبة لا يقاتلون عنها ؟
أجاب :

— عرفوا ألا طاقة لهم به فكرهوا معركة غير متكافئة ،
تذوب فيها قريش أمام العدو ، ثم تثوب بعار الهزيمة
وسكنت « آمنة » برهة ، ثم تذكرت ما سمعت عن لقاء
قيل انه كان بين أمير مكة وطاغية الأحباش ، فعادت تسأل
عما تم في ذاك اللقاء

فأجابها الأمير الشيخ :

« أجل كان بيننا لقاء ، سعى اليه أبرهة قبل أن أسعى
اليه . ذلك أنه حين بلغ مشارف مكة ، بعث « حنيفة
الحميري » وقال له :

— سل عن سيد أهل هذا البلد وشريفها ، ثم قل له ان
الملك يقول لك : (اني لم آت لحربكم ، انما جئت لهدم

هذا البيت ، فان لم تعرضوا دونه بحرب فلا حاجة لي
بدمائكم) فان هو لم يرد حربى فائتنى به

وجاءنى حناطة فأبلغنى رسالة أبرهة وتلقى جوابى :
« والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة ، هذا بيت
الله الحرام وبيت خليله ابراهيم عليه السلام ، فان يمنعه
فهو بيته وحرمة ، وان يخل بينه وبين أبرهة ، فوالله
ما عندنا دفع عنه »
قال حناطة :

- فانطلق معى فانه قد أمرنى أن آتية بك
ففعلت ، ومعى بعض أبنائى ، وهناك مضى بى اليه أحد
رجاله فقال له :

« أيها الملك ، هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك ،
وهو صاحب عير مكة ، وهو يطعم الناس فى السهل ،
والوحوش فى رءوس الجبال »

فأكرمنى « أبرهة » عن أن أجلس دونه ، وكأنما كره فى
الوقت نفسه أن تراه الحبشة معى على سرير ملكه ، فنزل
عن سريريه وجلس على بساطه وأجلسنى الى جانبه ثم قال
لترجمانه :

- قل له ما حاجتك ؟

فلما أجبت : حاجتى أن يرد على الملك مائتى بعير
أصابها لى

بدا على الملك كأنما صغرت فى عينيه ، وخيبت ظنه فى
وقال لترجمانه فى جفوة :

- قل له : قد كنت أعجبتنى حين رأيته ، ثم قد زهدت
فيك حين كلمتنى • أنكلمنى فى مائتى بغير أصبتها لك ،
وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك لا تكلمنى فيه ؟

قلت على الفور :

- انى أنا رب الابل ، وان للبيت ربا يحميه

قال الفاجر مدلا بقوة :

- ما كان ليمنع منى !

فأجبتته متحديا :

- أنت وذاك ..

وكان معى سيد هذيل ، فعرض على «أبرهة» ثلث أموال
« تهامة » على أن يرجع ولا يهدم البيت ، فأبى متكبرا ،
واكتفى بأن أمر برد ابلى الى ..

وانصرفنا ، فحدثت قريشا بالخبر ، وأمرتهم بالخروج
من مكة ، ثم قمت فأخذت بحلقة باب الكعبة ، وقام معى
نفر من « قريش » يدعون الله ، ويستنصرونه على «أبرهة»
وجنده



وأطرق « عبد المطلب » لحظة ، ثم رفع رأسه الى السماء
وردد فى ضراعة أبياته التى قالها وهو آخذ بحلقة باب
الكعبة :

لاهم ان العبد يمنع رحله فامنع حلالك
جروا جموع بلادهم ، والفيل ، كى يسبوا عيالك

ان كنت تاركهم وكعبتنا ، فأمر ما بدا لك !

يا رب لا أرجو لهم سواكا
يا رب فامنع منهم حماكا
ان عدو البيت من عاداكا
امنعهموا أن يخربوا فناكا
فرددت « آمنة » من بعده :

يا رب لا أرجو لهم سواكا
ثم ودعها الشيخ وخرج ، على أن يبعث اليها فى غد من
يصحبها فى خروجها لتلحق بالجمع الراحل
وخلت « آمنة » الى نفسها والى الجنين الغالى الذى تطوى
عليها جانبيها ، فعز عليها أن تلده بعيدا عن البلد الحرام ،
وفى غير دار أبيه « عبد الله »
وكان هذا الخاطر بحيث يقلق مضجعها ويسهر ليلتها ،
لكنها أوت الى فراشها وما يتحلى عنها ايمانها بأن الله
مانع بيته ، ومتى كان للطاغين والجبابرة على البلد الحرام
سبيل ؟

ونامت مطمئنة ، حتى انبلج الصبح وقد قر عزمها على
ألا تبرح مكانها من جوار الحرم ، الى أن يقضى الله أمره



وارتفعت شمس الضحى دون أن يأتى من قومها أحد ،
ثم مضى النهار الا أقله وهى فى عجب : كيف لم يبعث عبد
المطلب رسله اليها ؟ وفيهم هذا الصمت المريب الذى يخيم

على أحياء مكة كأنما قد أمسك كل حى فيها أنفاسه ؟
بل فيم ذلك الضجيج البعيد ، يتناهى إليها من أقصى
الجنوب ، غامضا مختلطا مبهما لا تكاد تميزه : أهتاف هو
ودعاء ، أم صراخ وعويل ؟
ألا ان وراء ذلك كله لأمرًا ...



وأقامت « آمنة » تترقب ، حتى اذا آذنت الشمس
بمغيب ، جاءتها الرسل من قومها تسعى ، لا لتطلب إليها
أن تخرج الى شعف الجبال ، ولكن لتبشرها بالنجاة
ولم يبق فى « مكة » بعدئذ من لم يعرف الخبر :
حدثوا أن « أبرهة » كان قد تهيأ لدخول البلد الحرام ،
وهياً فيله وعبى جيشه مجمعا لهدم البيت العتيق ، ثم
الانصراف الى اليمن ، فلما وجهوا الفيل من معسكره فى
ظاهر البلدة من ناحية الجنوب ، برك وأبى أن يتحرك .
فضربوه فى رأسه بآلة من حديد ، ثم أدخلوا محاجن لهم
فى أسفل بطنه ، وهو بارك لا يقوم ، فوجهوه راجعا الى
اليمن فقام يهرول ، ووجهوه نحو الشام ففعل مثل ذلك ،
ووجهوه الى المشرق فتهيأ للانطلاق ، ولما عادوا يوجهونه
نحو مكة برك !
ثم حدثت المعجزة : سلط الله نقمته على أصحاب الفيل،
فانتشر فيهم فجأة وباء مهلك ، رمتهم بجراثيمه طير أبايل،
فجعلتهم كعصف مأكول

هنالك أدرکہم الذعر ، فولوا مدبرین یبتدرون الطريق
الذی جاءوا ، ویسألون عن « نفیل بن حبیب الخثعمی »
- وكان قد خرج لقتالهم حین مروا بأرض خثعم ، فلما
هزمه أبرهة افتدى نفسه بأن یكون دلیل الحبشان بأرض
العرب - فلا یکاد « نفیل » یسمع صیاحهم وضراعتهم الیه أن
یدلهم علی الطريق الی الیمین ، حتی یرد بأعلى صوته :
أین المفر والاله الطالب
والاشرم المغلوب لیس الغالب
أو یقول :

وکل القوم یسأل عن « نفیل »
کأن علی للحبشان دینا !
قیل : « فخرجوا یتساقطون بکل طریق ، ویهلکون بکل
مهلك علی کل منهل ، وأبرهة معهم ینتشر جسمه وتسقط
أنامله أنملة أنملة ! »

ولم تکن أرض العرب قد شهدت - فیما روى ابن اسحق
عن یعقوب بن عتبة - الحصبة والجدری قبل ذاک العام
المشهود

وأقبلت « قریش » علی کعبتها المقدسة تطیف بها حامدة
شاکرة ، وتجاوبت أرجاء البلد الامین بدعوات المصلین
وأناشید الشعراء :

تنکلوا عن بطن مكة انها
كانت قديما لا یرام حریمها
سائل امیر الجیش عنها ما رأى
ولسوف ینبى الجاهلین علیهمها

ستون ألفا لم يثوبوا أرضهم
ولم يعيش بعد الاياب سقيمها



وبلغت الاصداء مسمع « آمنة » فقامت تصلى وقد أشرق
وجهها بنور اليقين والايمان ، وأحست غبطة غامرة ، أن
استجاب الله لدعائها فلم يكتب لولدها - ابن عبد الله - أن
يولد بعيدا عن البلد الحرام



الوليد!

وليد الهندي فالكائنات ضياء
وفيم الزمان تبسم وثناء
الروح والملائك حوله
للدين والدنيا به بشراء
والعرش يزهو والخطيرة تزدهي
والمنتهى ، والسدرة العصماء
« شوقي »

ثم لم تك الا فترة قصيرة المدى بعد يوم الفيل ، حتى
ذاعت بشرى المولد . حدد قوم هذه الفترة بخمسين يوما
وهو الاكثر والاشهر ، على ما نقل « السهيلي » فى (الروض
الأنف)

وعن « ابن عباس » أن المولد كان يوم الفيل ، واكتفى
آخرون بأن ذكروا انه كان فى عام الفيل (السيرة ١/١٦٧)
وكانت الرؤى قد عاودت « آمنة » فى صدر ليلة مقمرة
من ليالى ربيع ، وسمعت من يهتف بها من جديد انها
توشك أن تضع سيد هذه الامة ، ويأمرها أن تقول حين
تضعه :

« أعينه بالواحد ، من شر كل حاسد » ثم تسميه
« محمدا »

وجاءها المخاض فى أوان السحر ، وهى وحيدة فى منزلها ليس معها أحد سوى جاريتها - وقيل فى رواية أخرى ان « أم عثمان بن أبى العاص » كانت كذلك معها - فأحست بما يشبه الخوف ، لكنها ما لبثت أن شعرت بنور يغمر دنياها ، ثم بدا لها كأن جمعا من النساء يحطن بمضجعها ويحنون عليها ، فحسبتهن من بنات عبد مناف ، وعجبت كيف علمن بأمرها وما أخبرت به من أحد ، غير أنها أدركت على الفور أن هؤلاء اللواتى حسبتهن من نساء البيت الهاشمى ، لسن سوى أطياف سارية ! وخيل إليها أن من بينهن « مريم ابنة عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وهاجر أم اسماعيل !

وزايلها كل ما كانت تحسه من خوف ، فتجلدت للحظة الحاسمة ، وما كاد نور الفجر ينبثق ، حتى كانت قد وضعت وليدها كما تضع كل أنثى !



وتواتر الأطياف النورانية السارية ، حين لم تعد « أمنة » وحدها ! كان ولدها الى جانبها يملأ الدنيا حولها نورا وأنسا وجمالا ، ومضت ساعة وبعض ساعة ، وهى لا تفتأ ترنو الى طلعه البهية وكيانه اللطيف المشرق ، وتذكر به الحبيب الذى أودعها اياه ، ثم رحل ...

حتى اذا انبلج الصبح ، كان أول ما فعلته الوالدة أن أرسلت الى « عبد المطلب » تبشره بمولد حفيده ، فأقبل مسرعا ، وانحنى فى حنو على الوليد ، يملأ منه عينيه ، وقد

ألقى سمعه الى « آمنة » وهى تحدثه عما رأت وسمعت حين
الوضع

ووعى كل ما قالت ، ثم حمل صغيره العزيز بين ذراعيه
فى رفق ورقة ، وانطلق خارجا حتى أتى الكعبة فقام يدعو
الله ويشكر له أن وهبه ولدا من ابنه الفقيد الغالى
وأحاط به بنوه فى خشوع وغبطة ، وهو يطوف
بالكعبة منشدًا :

الحمد لله الذى أعطانى
هذا الغلام الطيب الأردن
قد ساد فى المهدي على الغلمان
أعيذه بالبيت ذى الأركان
حتى أراه بالغ النبى
أعيذه من شر ذى شنان
من حاسد مضطرب العنان



ثم رده الى أمه ، وعاد لينحر الذبائح ويطعم أهل الحرم
وسباع الطير ووحش الفلاة

وكانت مكة - حين ذاعت فيها بشرى المولد - ما تزال
تحتفل بما أتاح الله لها من نصر على أصحاب الفيل ، فرأى
القوم فى مولد « محمد » حينذاك ، آية تذكر بأخرى ، يوم
اختير أبوه للنحر ، ثم افتدى بالابل المنة

وبلغ من غبطة البيت الهاشمى بالمولود العزيز ، أن
« ثويبة الأسلمية : جارية أبى لهب بن عبد المطلب » لم

تكد توافى سيدها ببشرى المولد ، حتى أعتقها ، ولو قد
كشف له الحجاب عن الغد المغيب ، لروعته الحرب الدامية
التي قدر لقريش أن تصلها بعد أربعين عاما ، عندما جاء
وليدها ذاك الهاشمي اليتيم ، برسالة السماء

فيقال ان « العباس بن عبد المطلب » رأى أخاه
« أبا لهب » بعد موته بسنة ، فسأله عن حاله ، فأجاب
أبو لهب : في النار ، الا أن العذاب خفف عني كل ليلة
اثنين ، بماء أمصه من بين اصبعي هاتين ، وذلك أني أعتقت
« ثويبة » حين بشرتني بولادة النبي صلى الله عليه وسلم

و « أبو لهب » هذا ، هو الذي نزل فيه قوله تعالى :
« تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ، مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ
وَمَا كَسَبَ - سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ - وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ
الْحَطَبِ - فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ »



ولن يمضى وقت طويل ، حتى تمتلى الجزيرة بأخبار
ومرويات عن تلك اللحظة المباركة التي وضعت فيها « آمنة »
ولدها . وتظل تلك المرويات تتناقل عبر الأجيال حتى
تصل إلينا وقد أضافت إليها الليالي والأيام جديدا من
مبتدعات السمار ورؤى المحبين

وهذا زماننا يصغى في ذكرى تلك الليلة المباركة من كل
عام ، الى مئات الألوف من الأصوات في شتى المحافل
بمختلف بقاع الأرض ، ترتل قصة المولد وترنم بما ظهر
عند ولادة محمد من خوارق وغرائب ، اذ :

« زيدت السماء حفظاً ، ورد عنها المردة وذوو النفوس
الشیطانية ، ورجمت الجن وتدلت اليه صلى الله عليه وسلم
الأنجم الزهرية ، واستنارت بنورها وهاد الحرم ورباه -
وخرج معه صلى الله عليه وسلم نور أضاء قصور الشام
القيصرية ، فرآها من بطاح مكة داره ومغناه - وانصدع
الايوان بالمدائن الكسروية ، الذي رفع أنو شروان سمكه
وسواه - وسقطت أربع وعشر من شرفاته العلوية ، وكسر
سريبر الملك كسرى لهول ما أصابه وعراه - وخدمت النيران
المعبودة بالممالك الفارسية ، لطلوع بدره المنير ومجياه .. »
ويهتف أمير الشعر العربى بعد نحو ثلاثة عشر قرناً
ونصف قرن من الليلة الغراء :

بك بشر الله السماء فزينت
وتضوعت مسكاً بك الغبراء
يوم يتيه على الزمان صباحه
ومسأؤه بمحمد وضاء
ذعرت عروش الظالمين فزلزلت
وعلت على تيجانهم أصداء
والنار خاوية الجوانب حولهم
جمدت ذوائبها وغاض الماء
والآى تترى ، والحوارق جمّة
« جبريل » رواح بها غداء !



وفى ضجيج الاحتفال بمولد « ابن عبد الله » ، لم تنس
« قريش » أن تسأل شيخها « عبد المطلب » : لم عدل عن

أسماء آبائه وسمى حفيده محمدا ؟

ذلك أن الاسم لم يكن ذائعا بين القوم ، ويقول « السهيلي »
في « الروض الأنف » : « لا يعرف في العرب من تسمى
بهذا الاسم قبله صلى الله عليه وسلم الا ثلاثة ، طمع
آباؤهم - حين سمعوا بذكر محمد صلى الله عليه وسلم ،
وبقرب زمانه ، وأنه يبعث في الحجاز - أن يكون ولدا لهم ..
وهم : محمد بن سفيان بن مجاشع ، جد جد الفرزدق
الشاعر - ومحمد بن أحيحة بن الجلاح .. ومحمد بن حمران
ابن ربيعة . وكان آباء هؤلاء الثلاثة قد وفدوا على بعض
الملوك ، وكان عنده علم من الكتاب الأول ، فأخبرهم بمبعث
النبي صلى الله عليه وسلم وباسمه ، وكان كل واحد منهم
قد خلف امرأته حاملا ، فنذر ان ولد له ذكر أن يسميه
محمدا .. »



سألت « قريش » شيخها عن اسم حفيده ، فأجاب :
أردت أن يكون محمودا في الأرض وفي السماء ..
ويعلق « بودلى » على تلك الإجابة قائلا : « ... وأيا
كان السبب ، فقد أصبح اسم الطفل محمدا ، وتسمى به
ملايين الأطفال الذين ولدوا بعد الدين الجديد الذي قدر
لابن « آمنة » من عبد الله ، أن ينشره على العالمين .. »

الرضيع

« ٠٠٠ فما منا امرأة الا وقد عرض عليها محمد -
صلى الله عليه وسلم - فتأباه اذا قيل لها انه يتيم ،
وذلك أنا انما كنا نرجو المعروف من أبى الصبى ،
فكنا نقول : يتيم ؟ ! وما عسى أن تصنع أمه وجده ؟
» فما بقيت امرأة قدمت معى الا أخذت رضيعا
غيرى ، فلما أجمعنا على الانطلاق ، قلت لصاحبى :
والله انى لاكره أن أرجع من بين صواحبى ولم آخذ
رضيعا ، والله لاذهبن الى ذلك اليتيم فلاخذنه
» قال : لا عليك أن تفعل ، عسى الله أن يجعل لنا
فيه بركة ٠٠٠ »

« حليلة السعدية »

أحسنت « آمنة » بعد أن وضعت ولدها الوحيد ، أن
الشطرنج الأهم من رسالتها قد انتهى بمولد ابنها الموعود
بأمجد غد ، كما انتهت رسالة « عبد الله » منذ أن أودعه جنينا
فى أحشائها ، فأسلمت نفسها من جديد لأشجان
الذكرى ، الى حد أثر فى صحتها وان لم يفض بها الى التلف
أو قريب منه ، ذلك أن جزءا من تلك الرسالة لم ينته

بعد ، فما يزال عليها أن ترعى ولدها حتى يدرك ، فتحدثه
عن أبيه ، ثم تصحبه الى يشرب ، حيث يزوران قبرفقيدهما
الغالى

وأقبلت الأم على صغيرها ترضعه ريشما تفد المراضع من
البادية فيذهبن به مع لداته من رضعاء قريش ، بعيدا عن
جو مكة الحانق ، لكن لبن « آمنة » جف بعد أيام • ويعلل
« بودى » ذلك بأنه أثر لما أصابها من حزن لموت زوجها ،
فدفعت به الى « ثويبة » جارية عمه « أبى لهب » ، وكانت قد
أرضعت قبله عمه « حمزة بن عبد المطلب »

ثم لم تمض الا أيام معدودات ، حتى وفدت المراضع من
بنى سعد بن بكر ، يعرضن خدماتهن على نساء الطبقة
الموسرة من قريش ، فعرض عليهن « محمد بن عبد الله »
فزهدهن فيه يتمه ، وأنه لم يك ذا ثراء عريض يكافى
نسبه الشريف ، فلقد مات « عبد الله » فى حياة أبيه « عبد المطلب »
فلم يرث عنه مالا ، وأعجلته منيته فى مقتبل العمر قبل أن
يتأثّل لنفسه غنى ، ومن ثم لم يترك لولده الذى خرج الى
الدنيا بعد موته ، سوى أمه ، وجاريتيه الحبشية « بركة
أم أيمن » ، وعددا من الابل والغنم ، وانها - كما يقول
الدكتور هيكل - لثروة ضئيلة لحفيد أمير مكة ، وسليل
البيت الهاشمى القرشى العريق •

وأرهب الحزن « آمنة » ، وهى ترى المراضع يوشكن أن
يعدن الى البادية ، زاهدات فى ولدها الشريف اليتيم ، مؤثرات
عليه أطفال الأحياء ممن يرجى منهم الخير الوافر
وكاد اليأس من اقبال مرضعة على اليتيم ، يغزو قلب

أمه العامر بأشجانه ، لولا أن عادت إحدى المرضعات تلتمس
« محمدا » بعد أن انصرفت عنه أول النهار . تلك هي « حليلة »
بنت أبي ذؤيب السعدي « زوجة » الحارث بن عبد العزى :
أحد بني سعد بن بكر بن هوازن »

ولندع « حليلة » تروى قصتها مع الرضيع اليتيم ، أو
يرويه عنها « ابن اسحق » شيخ كتاب السيرة ، نقلا عن سمع
« عبد الله بن جعفر بن أبي طالب » يقول :

« كانت حليلة بنت أبي ذؤيب السعدية ، أم رسول الله
صلى الله عليه وسلم التي أرضعته ، تحدث أنها خرجت من
بلدها مع زوجها وابن لها صغير ترضعه ، فى نسوة من
بنى سعد بن بكر ، تلتمس الرضعاء . قالت : وذلك فى
سنة شهباء لم تبق لنا شيئا ، فخرجت على أتان لى قمراء
— أى عجفاء — معنا شارف لنا — أى ناقة مسنة — والله
ما تبض بقطرة ، وما ننام ليلتنا أجمع من صبينا الذى معنا ،
من بكائه من الجوع ، وما فى ثديي ما يغنيه وما فى شارفنا
ما يغذيه . ولكننا كنا نرجو الغيث والفرج ، فخرجت على
أتانى تلك . . . حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء ، فما منا
امرأة الا وقد عرض عليها (محمد) — رسول الله صلى الله عليه
وسلم — فتأباه اذا قيل لها انه يتيم . وذلك أنا انما كنا
نرجو المعروف من أبى الصبى فكنا نقول : يتيم ؟ !
وما عسى أن تصنع أمه وجده ؟

« فما بقيت امرأة قدمت معى الا أخذت رضيعا ، غيرى ،
فلما أجمعنا على الانطلاق قلت لصاحبى : والله انى لاكره
أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعا . والله لاذهبن
الى ذلك اليتيم فلاآخذنه

« قال : لا عليك أن تفعلی ، عسى الله أن يجعل لنا فيه
بركة .. »

« فذهبت اليه فأخذته ، وما حملني على أخذه الا أني
لم أجد غيره . فلما أخذته رجعت به الى رحلي ، فلما
وضعته في حجرى أقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن ،
فشرب حتى روى ، وشرب معه أخوه حتى روى ، ثم ناما ،
وما كنا ننام معه قبل ذلك . وقام زوجى الى شارفنا تلك
فاذا هى حافل ، فحلب منها ما شرب ، وشربت معه حتى
انتهينا ريا وشبعا ، فبتنا بخير ليلة

« يقول صاحبى حين أصبحنا : تعلمى والله يا حليلة لقد
أخذت نسمة مباركة !

« فقلت : والله انى لأرجو ذلك

« ثم خرجنا وركبت أتانى وحملت (محمدا) عليها معى ،
فوالله لقطعت بالركب ما يقدر عليها شئ من حمهم ، حتى
ان صواحبنى ليقطن لى :

« يا ابنة أبى ذؤيب ، ويحك ! اربعى علينا ، أليست
هذه أتانك التى كنت خرجت عليها ؟

« فأقول لهن : بلى والله انها لهى هى !

« فيقطن : والله ان لها لشأنا ... »

« ثم قدمنا منازلنا من بلاد بنى سعد ، وما أعلم أرضا
من أرض الله أجذب منها ، فكانت غنمى تروح على حين قدمنا
به معنا ، شباعا لبنا فنحلب ونشرب ، وما يحلب انسان
(غيرنا) قطرة لبن ، ولا يجدها فى زرع ، حتى كان
الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم :

« ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب !
« فتروح أغنامهم جياعا ما تبض بقطرة لبن ، وتروح
غنى شباعا لبنا • فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير
حتى مضت سنتاه وفصلته »



هكذا نما الرضيع وترعرع فى صميم البادية ، بين قبيلة
بنى سعد وهى من أعرق قبائل العرب وأفصحها ، فنطق
— كما يقول بودلى : ٢٩ — أول ما نطق ، وخطا أول ما خطا ،
بين أسياد البادية ، هؤلاء الذين سيقا تلونه يوما ثم يخضعون
له أخيرا ، ويحملون اسمه الى بقاع من الأرض لم يكونوا
ليعرفوها أو يسمعوها بها حتى يومهم ذاك •

كيف أمضت الأم سنتيها هاتين ؟ تسكت كتب السيرة
فلا تحدثنا بشيء من ذلك ، وكأنما أحس الرواة والمؤرخون
بالذى شعرت به « آمنة » من أن دورها الجليل قد أوشك
على الانتهاء

على أنا لسنا بحاجة الى من ينبئنا أنها أقامت فى دار
« عبد الله » تنتظر عودة ابنها ليعمر هذا البيت الذى أوحش
من بعد رحيله

وانتهزت الأحزان المطوية فى أعماقها ، فرصة وحدتها
الموحشة اثر ذهاب ابنها الى البادية ، فأرهقتها ارهاقا لم
يكن لها عهد بمثله ابان حملها وحين كان « محمد » معها •
ولكن أوان فطامه كان يدنو رويدا ، وهذه هى تشغل عن

أشجان ذكرياتها بانتظار الحبيب الحى ، وتسلى همها بتمثله
اذ يعود فيملاً دنياها أنسا وضياء



واستبطأت عودة « حليلة » بفتاها ، ولعلها همت غير
مرة بأن تبعث اليها من يسترجعه ما دام قد استكمل عامى
رضاعته . لكن « حليلة » لم تلبث أن جاءت ومعها العزيز
المنتظر ، فلم تكد أمه المشوقة تراه ، حتى التزمته معانقة ،
وتشبثت به فى حضنها كأنما لا تريد أن تبعده عن قلبها
الخافق ، ثم أرسلته بعد حين ، وجعلت ترنو اليه معجبة
بما بدا عليه من علامات الصحة والنضرة والنضوج

واذ أحست « حليلة » اعجاب الأم بصحة الصبى
العزيز ، راحت تحدثها عن جو « مكة » - وقد كان اذ ذاك
مرهق الحر شديد الوطأة - و « آمنة » تلقى اليها بعض
سمعها ، أن كانت فى شغل بمناجاة الحبيب العائد
هنالك تشجعت « حليلة » وأفصحت عن مرادها قائلة:
- لو تركت بنىً عندي حتى يغلظ ، فانى أخشى عليه
وبأ « مكة » !

فأنكرت الأم الحنون ما سمعت ، ونظرت الى « حليلة »
نظرة عتاب . كيف خطر لها أن « آمنة » تستطيع أن تفارق
للمرة الثانية ، فلذة كبدها ونور عينيها وأنس دنياها ؟
لكن « حليلة » لم تيأس ولم تتراجع ، بل ألحت فى
استصحاب الصبى ، متوسلة الى والدته بكل ما فى أمومتها
من حنان وايثار ، مؤكدة لها أن من الخير لولدها أن يظل

فترة أخرى بعيدا عن مكة ، وأن يعود معها فيمـرح في
البادية ملء الصحة ملء الطلاقة والحرية !

وعادت الأم تنظر الى ابنها فتراه حقا قد أئـنـع في جو
البادية الطليق ، ثم انثنت الى قلبها تسأله ان كان يطيق
بعد الوحيد الغالى ؟ فاذا بهذا القلب النابض بالحب والحنو
والايثار ، يدعوها الى مزيد من الاحتمال والتصبر ، في
سبيل ما تعلم حقا أنه أنفع لولدها وأفضل
وودعت « آمنة » ولدها للمرة الثانية ، وفي قلبها
وحشة وشجن ...

وانطلقت به « حليلة » راجعة الى مراعى بنى سعد ،
والدنيا لا تكاد تسعها من فرط غبطتها وفرحها ، اذ كانت
وقومها « شديدة الحرص على مكثه فيهم ، لما رأوا من برـكـته »



لكن ، لم تمض الا بضعة أشهر ، حتى عادت « حليلة »
من تلقاء نفسها بالصبي المبارك الى أمه ، وهى بادية القلق
ولم تذهب فرحة اللقاء بعجب « آمنة » من تلك العودة
السريعة ، فقالت تسأل « حليلة » :
— ما أقدمك به يا ظئر وقد كنت حريصة عليه وعلى
مكثه عندك ؟

أجابت « حليلة » بعد تردد وتفكير :
— قد بلغ الله بابنى ، وقضيت الذى علئى ، وتخوفت
الأحداث عليه ، فأديته اليك كما تحبين
ولم يقنع جوابها هذا « آمنة » ، بل لم يذهب بشيء مما

خامرها من ريب وعجب ، فما زالت بحليمة حتى أنباتها
بالخبير :

قالت - فيما روى عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب - :
« فوالله انه بعد مقدمنا به بأشهر مع أخيه - من
الرضاعة - لفى بهم لنا خلف بيوتنا ، اذ أتانا أخوه يشتد ،
فقال لي ولأبيه :

- ذاك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض
فأضجعاه ، فشقا بطنه ، فهما يسوطانه
فخرجت أنا وأبوه نحوه ، فوجدناه قائما منتقعا
وجهه . فالتزمته والتزمه أبوه ، فقلنا له :
- مالك يا بني ؟

قال :

- جاءني رجلان عليهما ثياب بيض ، فأضجعاني وشقا
بطني ، فالتمسا (فيه) شيئا لا أدرى ما هو
فرجعنا به الى خبائنا ، وقال لي أبوه :
- يا حليمة ، لقد خشيت أن يكون الغلام قد أصيب ،
فالحقيه بأهله قبل أن يظهر ذلك به
فاحتملناه فقدمنا به .. »



وأصغت الأم « آمنة » الى القصة دون أن تبدو عليها
بادرة خوف أو قلق ، حتى فرغت « حليمة » من حديثها ،
فقالت لها بملء يقينها واطمئنانها :

« آفتخوفت عليه الشيطان ؟ »

أجابت من فورها :

— نعم

فقالت « آمنة » :

« كلا والله ، ما للشيطان عليه من سبيل ، وان لبنى

لشأنا ، أفلا أخبرك خبره ؟ »

فهمت « حليلة » :

« بلى »

واذ ذاك حدثتها « آمنة » بما رأت وسمعت حين حملت

به ، ثم ختمت حديثها قائلة :

« ٠٠٠ فوالله ما رأيت من حمل قط كان أخف من حمله

ولا أيسر منه ، وقع حين ولدته وانه لواضع يديه على الارض

رافع رأسه الى السماء ٠٠٠ دعيه عنك وانطلقى راشدة »

فظهر على « حليلة » أنها تذكرت شيئا كان قد غاب

عنها ، وهتفت قائلة :

« الآن فهمت ما لم أفهمه من قبل : ذلك أن نفرا من

نصارى الحبشة رأوا ابني محمدا معي حين رجعت به بعد

فطامه ، فنظروا اليه وسألوني عنه ، وفحصوه مليا ثم

قالوا :

— لناخذن هذا الغلام فلنذهب به الى ملكنا وبلدنا ، فان

له شأننا نحن أدري به وأعرف

فاختطفته منهم وقد هاجنى ذلك على رده اليك ، وهممت

أن أفعل ، لولا أن مضارب بنى سعد كانت أقرب الى منك،

فعدوت نحوها ولم أشعر بالاطمئنان حتى دخلت به الحمى»
وأكثر المؤرخين المحدثين - من مستشرقين ومسلمين -
يقفون عند قصة الملكين هذه موقف الإنكار ، فاذا ووجهوا
بالذى رواه « ابن اسحق » عن بعض أهل العلم ، من أن
الرسول نفسه حدث نفرا من أصحابه عن الملكين اللذين
طهرا قلبه ، لاذوا بالقول بأن رواية الحديث ضعيفة السند ،
ثم نقدوا المتن نفسه بأن الروايات تجمع على أن محمدا أقام
ببني سعد الى الخامسة من عمره ، وقصة الملكين هذه قد
حددت سنه بما دون الثالثة ، وأرجعته الى مكة بعد فطامه
بأشهر . فبين الروايتين - كما يقول الدكتور هيكل ص ٧٣ -
تناقض صريح

ثم يستطرد الدكتور هيكل قائلا :

« وانما يدعو المستشرقين ويدعو المفكرين من المسلمين
الى هذا الموقف من الحادث ، أن حياة محمد كانت كلها حياة
انسانية سامية ، وانه لم يلجأ فى اثبات رسالته الى ما لجأ
اليه من سبقه من الخوارق ، وهم فى هذا يجردون من
المؤرخين العرب والمسلمين سندا حين ينكرون من حياة
النبي العربى كل ما لا يدخل فى معروف العقل ، ويرون
ما ورد من ذلك ، غير متفق مع ما دعا القرآن اليه من النظر
فى خلق الله ، وأن سنة الله لن تجد لها تبديلا ، غير متفق
مع تعيير القرآن المشركين بأنهم لا يفقهون ، أن ليست لهم
قلوب يعقلون بها » ا . هـ

والحق أن ضعف السند ، كان يعفينا من مثل هذا العناء
فى نقد المتن ، فالحديث الذى أورده « ابن اسحق » مروى

عن « بعض أهل العلم » ويحسبه ابن اسحق ، « خالد بن معدان الكلاعى » وخالد هذا هو « أبو عبد الله الشامى الحمصى » المتوفى فى العقد الأول من القرن الثانى الهجرى ، وقد ساق الحديث مرسلا فلم يذكر فيه اسم الصحابى الذى نقله عن الرسول

ومعنى هذا أن الحديث خبر واحد - وقد قيل انه لا يفيد علما ولا ظنا - كما أنه حديث مرسل ، سقط فيه ذكر الصحابى ، مجهل بقول ابن اسحق : « عن بعض أهل العلم »

وهو بهذا كله ، يأتى فى مرتبة من أضعف مراتب النقل ، فلا يلزم بشئ ، ومن هنا لم تكن بنا حاجة الى التعرض لنقد المتن بما ذكروه من تناقض صريح بين زمن القصة ، وبين الرواية القائلة بأن محمدا بقى فى البداية حتى الخامسة من عمره ، اذ ليس ببعيد أن تكون « حليلة » عادت فأخذت ظئرها للمرة الثالثة ، متوسلة الى أمه بما اكتسب هناك من قوة وصحة

كذلك لم تكن بنا حاجة الى نقد الحديث بأنه يخالف معروف العقل ، وهو نقد لا يسلم من الاعتراض ، وأولى منه أن يقال ان الحادثة تخالف مألوف الناس ومعتادهم ، أما العقل فلا يحيل أن تشق بطن ويخرج منها عضو ، وما نزال نشهد ذلك كل يوم فى جراحات الجسم

ولعل الذى يمكن أن يقال هنا فى اطمئنان ، هو أن القصة - سواء أجرت على لسان الرسول أم على لسان تابعى - فهى من قبيل التمثيل الذى يراد به نقاء السريرة

وصفاء النفس ، وهذا قريب مما ذهب اليه « درمنجم »
حين رأى الحادثة « لا تستند الى شىء غير المعنى الحرفى
للاية القرآنية : ألم نشرح لك صدرك ، ووضعنا عنك
وزرك ، الذى أنقض ظهرك »

ولا أستبعد مع هذا كله ، أن تكون « حليلة » قد روت
الحادثة بعد الذى رأت من بركة رضيعها ، فليس بمنكر
عندنا ، ولا مستبعد فى عقولنا ، أن تؤمن « حليلة » بأن
هذا قد حدث فعلا ، بل انه ليتسق مع الذى اطمأن اليه
أكثر المفكرين المعاصرين - وفيهم الدكتور هيكل - « أنها
وجدت فيه منذ أخذته بركة : سممت غنمها ، وزاد لبنها ،
وبارك الله لها فى كل ما عندها »

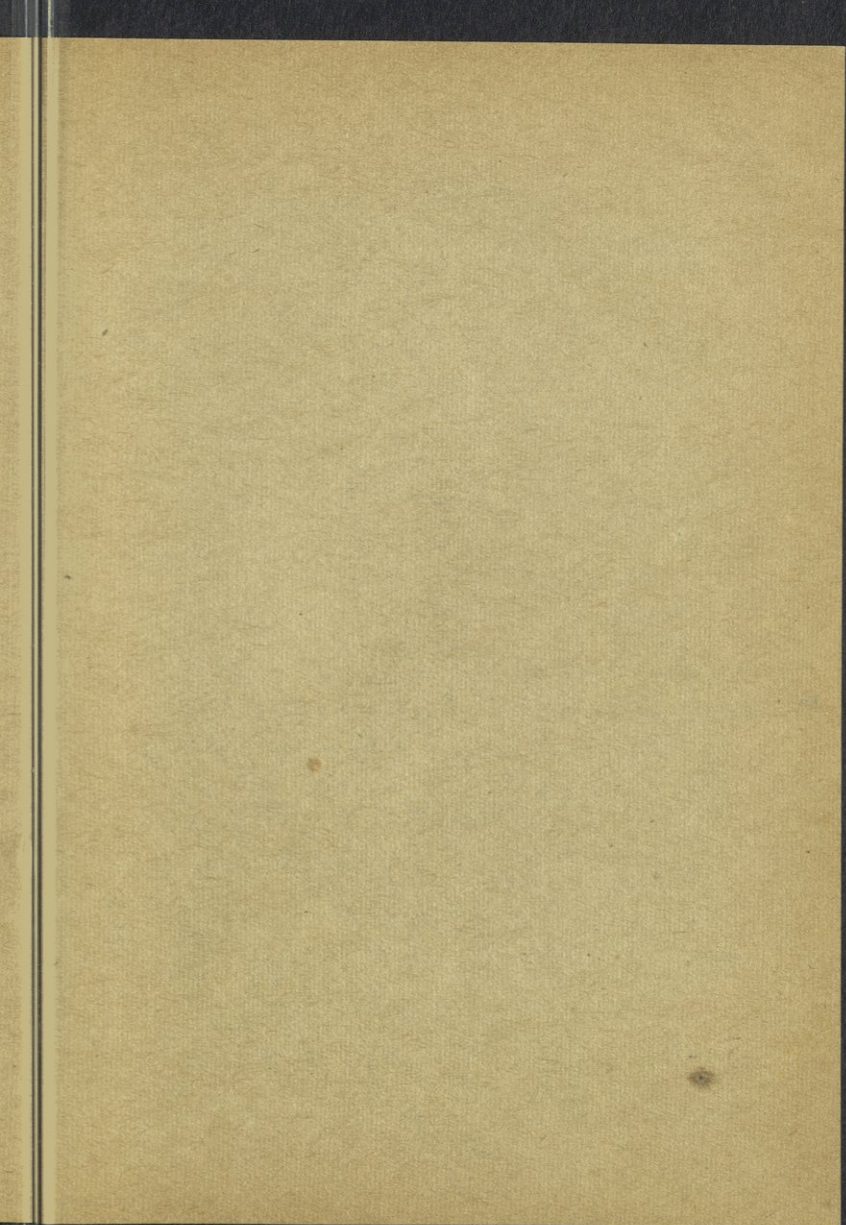
وكذلك يشير « بودلى » الى « اعتراف قبيلة بنى سعد ،
بأنهم وجدوا فيه منذ أخذه بركة »



الكتاب السادس

الرحيل

« حج بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم
حجة الوداع ، فمر على قبر امه وهو باك حزين
مفتم ، فبكيت لبكائه صلى الله عليه وسلم »
عائشة أم المؤمنين



لنرمق « آمنة » وهى تحتضن فتاها الوحيد
اليتيم ، بعد أن بلغ مقامه فى البادية أقصى أمده ، وعادت
به « حليلة » السعدية الى أمه فى البلد الحرام ، حيث مجد
آبائه العريق ، ومجد موطنه العتيق

عاد فبدد بنوره ظلال الكآبة التى كانت تغشى دنيا
« آمنة » فى وحدتها وترملها الباكر ، وأحسبها لم تكف عن
التحدث اليه عن والده الغائب ، ووصف شمائله ، ورواية
قصة فدائه ، وما كان معقودا عليه من آمال كبار

وقد بذلت « الأم » لولدها فى تلك الفترة ، أقصى
ما يستطيع من عناية ورعاية ، ان كان وحيدها ، ومناطق
أملها ، ومعقد رجائها . ويعترف كتاب السيرة بما كان لها
من أثر جليل فى هذه المرحلة من عمر نبي الاسلام ، فيقول
شيخهم « ابن اسحاق » :

« وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مع أمه آمنة
بنت وهب فى كلاءة الله وحفظه ، ينبته الله نباتا حسنا »

وأثمرت العناية ثمرتها ، فبذت على « محمد » تباشير
النضوج المبكر ، ورأت فيه « آمنة » عندما بلغ السادسة من
عمره ، مخايل الرجل العظيم الذى طالما تمثلته ، ووعدت
به فى أحلامها ورؤاها

اذ ذاك أدركت أن الأوان قد آن ، لكى تؤدى واجبا

مقدسا ، وتحقق رغبة طال عليها الانتظار ، فحدثت ابنها
عن رحلة يقومان بها معا الى « يثرب » كى يزورا قبر
الحبيب الراقد

وهش الابن لفكرة السفر ، وسره أن يصحب أمه فى
زيارتها لمثوى فقيدهما ، وأن يتعرف - فى الوقت نفسه -
الى احوال أبيه المقيمين بـ يثرب ، وكانوا ذوى شرف هناك
وجاه عريق ، ولعله سمع أمه غير مرة ، تردد قول الشاعر
فى « أبى وهب بن عمرو : خال عبد المطلب بن هاشم » :

ولو بأبى وهب أنخت مطيى
غدت من نداه ، رحلها غير خائب

بأبيض من فرعى لوى بن غالب
إذا حصلت أنسابها فى الذوائب

أبى لأخذ الضيم ، يرتاح للندى
توسط جداه فروع الاطايب

وكان الجو صيفا ، والشمس تلهب صخور مكة وتصهر
رمالها ، حين بدات « آمنة » تنهى لرحلة طويلة شاقة ،
تجتاز بها الاميال المائتين التى تفصلها عن يثرب ، حيث يرقد
« عبد الله » الذى لم تره منذ نحو سنوات سبع

ولم تكن تجهل مشقة السفر عبر الصحراء القاحلة ذات
الرمال المتحجرة ، ولا غاب عنها ما يتكبده الضاربون فى
أحشاء البداء بسهولها الموحشة وقفرها المرهوب ، لكن
شوقها الى زيارة يثرب ، كان أقوى من أن تغلبه عقبات
سفر هو فى الحقيقة قطعة من العذاب

وشغلت أياما بتجهيز راحلتها واعداد مئونة الطريق ،
ثم زودت ناقتها بهودج من أغصان مجدولة ، ذى مظلة مرفوعة
تحجب الشمس عن الابن العزيز
واقامت بعد ذلك تنتظر أول قافلة تخرج من مكة نحو
الشمال فى رحلة الصيف الموسمية ، فلما أذن المؤذن
بالرحيل ، ضمت إليها فتاها وركبت راحلتها ، تصحبهما
الجارية الوفية ، « بركة أم أيمن »



والقت « آمنة » نظرة وداع على دار عرسها التى جمعتها
فترة بعبد الله ، والتى وضعت فيها من بعده ولدهما
الوحيد ، ثم عرجت على الحرم فطافت به داعية ، وانفلتت
من بعد ذلك نحو الشمال ، حيث كانت القافلة تنهى
للتحرك ، وقد علا رغاء الابل مختلطا بضجيج المسافرين
ودعاء المودعين !

وسار الركب فى أول أمره بطيئا وثيدا كأنما يعز عليه أن
يفارق الحمى الأمين والديار الغاليات ، حتى اذا توارت معالم
مكة خلف الجبال الشم التى تحف بها ، استقبل الراحلون
طريق الشمال ، وحثوا الخطا قدر ما استطاعوا ، كيما يبلغوا
سوق الشام فى ابانه ، ويعودوا الى حماهم الأمين ، والى
الأهل والأحباب

ورفع الحادى عقيرته بالغناء ، يودع الديار التى خلفوها
من ورائهم ، ويعد الابل بالراحة والظل ، ان هى سارت
حثيثا فبلغت بأصحابها ما يأملون . ورجعت أرجاء البيداء

صدى الحداء الحنون ، فرقت قلوب الراحلين ، وسرت في
أبدانهم نشوة غامرة ، من شجن الذكرى ولوعة الفراق
وعطفت « آمنة » على ولدها في حنو فياض ، ثم أغمضت
عينها تحلم باللقاء القريب !

وساعدها صمت الصحراء الا من رجع النغم ، على
استرسالها في الحلم ، فقطعت أكثر الطريق شبه غافية ،
تنصت في الحداء الى نداء شجى يتناهى اليها من بعيد ،
فهفا قلبها الى الأليف النائي ، ورنّت عينها الى الأفق
الشمالي ، حيث تراءت لها « يثرب » أشبه بواحة خضراء ،
تحنو ظلالها الوارفة على أعز قبر ، ويؤوى ثراها الطيب
أعلى رفات ...

فاذا جن الليل وصمت الحادى ونام الرفاق وهجم
الكون ، ضمت « آمنة » وحيدها الى صدرها ، وأسلمت
نفسها الى رؤاها تسرى بها نحو المزار ، وتستحضر لها
روح « عبد الله » آية من مأواها البعيد المجهول ، لتحیی
الزوجة الحبيبة الوفية ، وتبارك الابن الصغير العزيز !



وشارفت الرحلة منتهاها ، فجمعت « آمنة » نفسها
واقبلت على ولدها تحدثه من جديد عن أبيه ، ثم تغريه
بأن يتطلع معها الى المدينة البيضاء التى بدأت تتكشف
من وراء جبل « أحد » ، حيث ينبسط السهل وتطمئن
الأرض ، ويتموج عشبها الأخضر ، وتراقص عليها ظلال
النخل الباسقات ...

وأناخ الركب رواحله فى « يثرب » ، ريثما تزود بالراحة
والتمر والماء ، ثم استأنف مسيره شمالا ، بعد أن ترك
« آمنه » وولدها وجاريتها فى حمى « بنى النجار » . . .



ولم يكد يستقر بها المقام بين ترحيب القوم واحتفالهم ،
حتى أمسكت بيد غلامها ومضت تطوف بالبيت الذى مرض
فيه أبوه ، وتحج الى القبر الذى حوى رفاتة ، ثم خلّت بين
ولدها وبين الحياة الجديدة مع أبناء أخواله ، فانطلقوا به
الى ملاعبهم ومغانيمهم ، يلعب ويمرح ، ويتعلم السباحة
مثلهم فى المياه الجارية ، على حين عكفت « آمنه » على قبر
الجيب ، تناجيه حيناً ، وتبكيه أحياناً ، وهى على الحالين
راضية مستروحة ، تجد من الأنس بقرب الفقيد ما يروى
ظماها ويريح شجوها

وطاب لها العيش هكذا شهراً كاملاً ، نفّست فيه عن
حزنها المكبوت ، وأسعفتها عيناها بما شاءت من دمع ،
كما تمتع ولدها بالجو اللطيف ، وبصحبة رفاقه من بنى
الخال . . .

وودت « آمنه » لو طال بها المقام فى « يثرب » ، ولعلها
فكرت - كما يقول بودلى - فى أن تبقى بها ، « لولا أن أسرة
نحمد مكية ، ومكة هى الموطن ، فلا بد من العودة إليها »

ولا يدرى أحد كيف أمضت « آمنه » ليلتها الأخيرة قبل
أن تشد رحالها عائدة الى « مكة » ، وأغلب الظن أنها أفنتها فى

مناجاة الحبيب الذى توشك ان تفارقه للمرة الثانية ، حتى اذا آن لها أن تمضى ، انتزعت نفسها قسرا من ذلك الجو المعطر بالذكرى ، وودعت مضيئها شاكرة لهم ما لقيت ولقى ولدها من جميل ترحابهم وكرم ضيافتهم ، ثم ركبت راحلتها وركب معها ولدها وجاريتها ، فخرجت على القبر تزور صاحبها للمرة الأخيرة ، وتكلف الصبر وهى تجامل القوم الذين صحبوها مودعين الى ظاهر المدينة ، ثم أسلمت نفسها الى أشجانها ، والناقة تمضى بها وبمن معها نحو مكة ، بلا حذاء ...



واذ هم فى بعض مراحل الطريق بين البلدين ، هبت - فيما يقال - عاصفة عاتية هوجاء ، أخذت تسفع المسافرين بريحها المحرقة ، وتثير من حولهم الرمال كأنه الشرر الملهب . فتأخرت الرحلة إياما ريثما هدأت العاصفة وسكنت ثائرتها ، ثم استأنف الركب سيره وقد شعرت « آمنة » بضعف طارىء ، مكن له من جسمها ما كانت تجد من لذعة الفراق الجديد

ولم يجزع « محمد » أول الأمر لما بدا على أمه من أعياء ، بل رجا أن تزايلها وعكثها بعد أن همدت العاصفة ، أما « آمنة » فأحست أنه الأجل المحتوم ، وكانت بحيث يشوقها أن تلحق بعبء الله ، لولا فرط تعلقها بولدها الوحيد اليتيم ...

وتشبثت به معانقة وقد انهمرت الدموع من عينيها ،

فأخذ الصبي العزيز يجفف دمعها بيده الحلوة الناعمة ،
مستمرثا لذة الحنان الغامر ، وكان ينسى في نشوته رهبة
الموقف ...

وفجأة ... تراخت ذراعاها عنه ، فحدق فيها فراعها
أن بريق عينيها يوشك أن ينطفئ ، وأن صوتها يخفت
رويدا رويدا ، حتى يصير الى حشجة هامسة
هنالك تضرع اليها أن تنظر اليه ، وأن تكلمه ، فيقال
انها « نظرت لوجهه وقالت :

بارك فيك الله من غلام
يا ابن الذى من حومة الحمام
نجا بـعـون الملك العلام
فودى غداة الضرب بالسهم
بمئة من ابل سـوـام »

ثم أمسكت تستريح ، فلما استردت أنفاسها اللاهثة
همست فى حشجة الاحتضار :

« كل حى ميت ، وكل جديد بال ، وكل كبير يفنى .
وأنا ميتة وذكري باق ، فقد تركت خيرا وولدت طهرا . . »
وذاب صوتها فى سكون العدم ، فما تكلمت بعدها أبدا .



وخيم على الكون صمت رهيب ، مزقته بعد حين ،
صرخة صبي مفجوع ، انحنى على جثة أمه فى العراء يناديها
فلا تلبى نداء ...

والتفت الى « أم أيمن » يسألها عن سر هذه الحياة التى

انطفأت ، والجسد الذى همد وبرد ، والصوت الذى فنى
وذاب ، فضمته المسكينة الى صدرها ، ولم تملك الا أن
تقول دون أن تعي :

« انه الموت يا بنى » !

الموت ؟ !

ذاك الذى غال أباه من قبل ؟

ذاك الذى جرع أمه كأس الترمل ، فما طاب لها عيش
ولا اندمل فى قلبها الجرح مدى سبع سنوات طوال ؟ !
ذاك الذى يطوى الأجزاء فى جوف الثرى ، فلا رجعة بعد
ولا لقاء ؟ !

ذاك الذى يمضى بالمسافر الى حيث لا عودة ولا مآب ؟

وتلفت اليتيم حواليه حائرا ، فاذا الكون هامد موحش ،
كانما غشيته غاشية من الخوف والرغبة فى حضرة الموت !
ولاذت عيناه الضارعتان بالسماء ، فاذا بها واجمة ،
ملفعة بزرقة كابية خرساء !

ومد بصره المجهد الى الأفق البعيد ، فاذا قطع ممزقة
مشردة من غيوم شاحبة ربداء !

هنالك أب اليتيم الى « أمه » فجلس قريبا منها يحرق
فيها صامتا خاشعا ، على حين أخذت « بركة » تلف الجسد
الراقد ، وتعصب الوجه الذابل ، وتغمض العينين المنطفئتين
وتبعها مطرقا مستسلما ، وهى تحمل الجثة الى قرية
« الأبناء » كيما تجهزها لضجعتها الأخيرة ، حتى اذا
أوشك الثرى أن يغيبها ، اندفع وحيدها اليتيم نحوها

فتشبث بها ، يريد أن يستبقها أو يبقى معها !
وعلا نحيب القوم من اشفاق ورثاء ، وخلوا بينه وبين
أمه ساعة أو بعض ساعة ، ثم نَحَّوه عنها في رفق ،
وأضجعوها في لحدها
وهالوا عليها الرمال ...

... ..
ووجمت أرباض « مكة » وهى تشهد الصبى الحزين
الذى غادرها مع أمه منذ شهر وبعض شهر ، بادی القبطة
والتهلل والاشراق ، يعود اليها اليوم وحيدا مضاعف
اليتم ، قد ذاق الحزن المر ، ورأى بعينيه مشهد الموت فى
أعز من له ، وبلا المأساة الفادحة التى طالما حدثته أمه
عنها ، وهى تستعيد ذكرى أبيه « عبد الله »

وسوف تذكر « مكة » عودة « محمد » هذه ، يوم يخرج
منها بعد نحو نصف قرن ، تحت جناح الظلام ، مهاجرا بدينه
الجديد الى « يثرب » فى صحبة شيخ صديق ، وقريش
من ورثته تعدو فى أثره وتلح فى طلبه ...

وكذلك سوف تذكر « مكة » عودة الصبى اليتيم هذه ،
يوم يرجع اليها من مهجره عام الفتح ، ويدخلها ظافرا
منتصرا ، ليحطم الأصنام التى شوهت جلال الحرم ، ويهتف
من أعلى البيت الحرام :

« الله اكبر ! »

فترجع أرجاء الجزيرة هذا الهتاف العالى ، ثم تتجاوب
به آفاق الأرض على مر العصور والأجيال

أجل ، وجمت أرباض « مكة » وهى تشهد الصبى
الحزين يعود إليها وحيدا مضاعف اليتيم ، فتلقاه جده
« عبد المطلب » محزون القلب ممزق الكبد ، وضمه إليه
مسبغا عليه من عطفه وحنانه ما لم يسبغ مثله على آخر
من بنيه وأحفاده ، « ومع ذلك بقيت ذكرى اليتيم أليمة
عميقة فى نفسه ، وطالما حدث أصحابه بعد مبعثه عن رحلته
تلك الأولى ، حديث محب ليشرب ، محزون لما تحوى القبور
من أهله بها . . . »

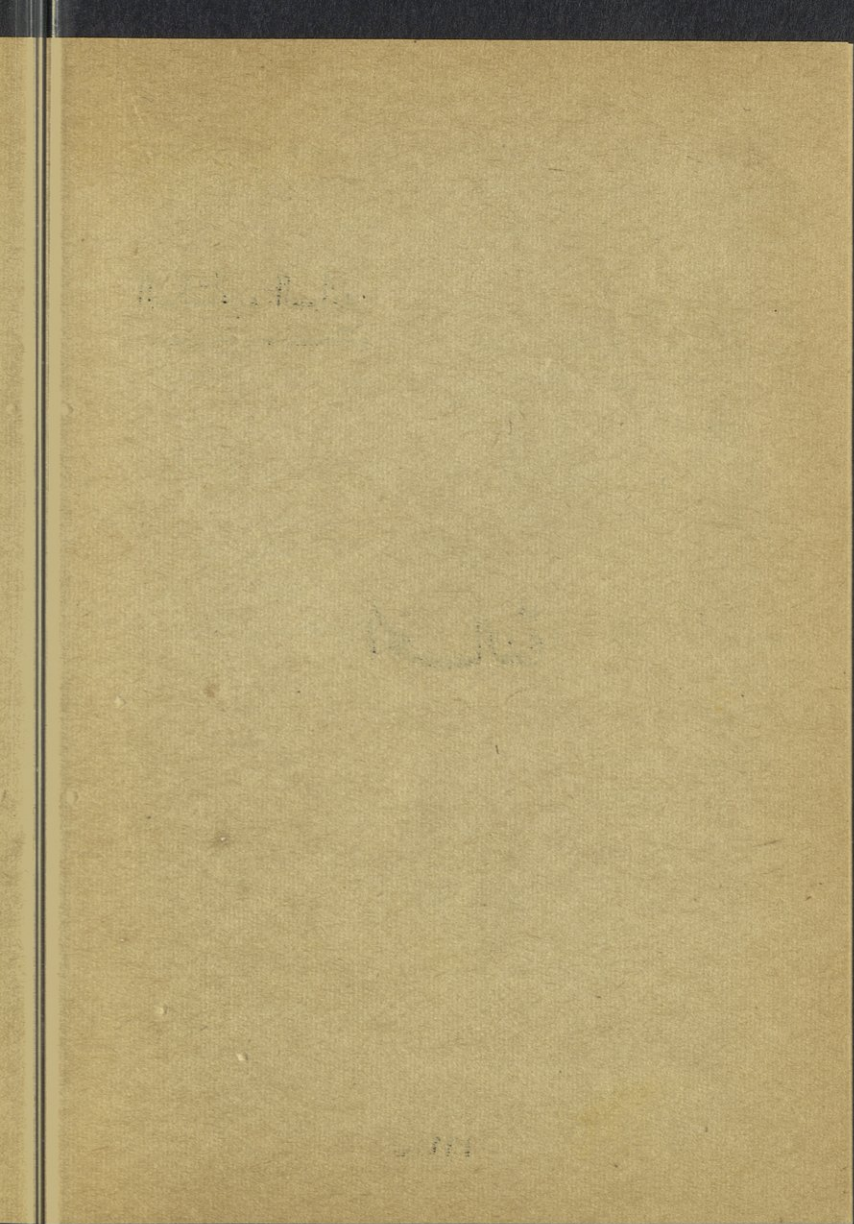
وفى الخبر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، زار قبر
أمه بالأبواء ، فبكى وأبكى . . .

وروى عن « عائشة » رضى الله عنها أنها قالت : « حيج
بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع ، فمر على
قبر أمه وهو باك حزين مغتم ، فبكيت لبكائه صلى الله عليه
وسلم . . . »



الكتاب السابع

النخالة



الى هنا ، تنتهى حياة « آمنة » على سطح هذه الارض .
وينصرف عنها التاريخ حينما ليعود بعد نحو أربعة وثلاثين
عاماً ، فيفسح لها أعز مكان فى كتاب الخلود ، كأم للنبي
البطل الذى تركته وحيداً يتيما فى بادية الجزيرة بين مكة
ويثرب ، فما بلغ مبلغ الرجال حتى اختارته السما
للرسالة العظمى ، وبعثته بالدين الذى يتبعه اليوم ملايين
البشر من شتى الأجناس ، فى مشرق الارض ومغربها !

ولقد ثوى الرسول - بعد أن أدى رسالته - فى ثرى
يثرب ، كما ثوى أبوه من قبل ، وآب الى المصير الذى يثوب
اليه كل حى « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل »
ولكنه عاش ملء الحياة فى حساب الانسانية والتاريخ ، وفى
قلوب هذه الملايين ممن آمنوا برسالته ، وستظل الدنيا أبداً
تقف خاشعة أمام ذلك البطل الرسول الذى لم يكدهم يهتف
هتافه الخالد : « الله أكبر » « حتى كان النسر الرومانى -
كما يقول بودلى - يترنح ثم يتمرغ فى التراب لآخر مرة »
وإذا العرب الجفاة البداة الذين لم يكونوا يخرجون من
جزيرتهم الا لرحلتى الشتاء والصيف ، يطأون هذا النسر
بالأقدام ، ويرثون عروش الأكاسرة وتيجان الفراعين ،
ويندفعون شرقاً حتى يبلغوا بالرسالة الحميدية أسوار
الصين ، وينطلقون بها غرباً حتى يصلوا الى ساحة المحيط

الاطلسي فيشيدوا لدينهم دولة اسلامية في اسبانيا معقل
الكاثوليكية المتعصبة ، ثم يغذون السير شمالا حتى يقرعوا
ابواب « فيينا » عاصمة امبراطورية النمسا ، ذات السلطان
في قلب اوربا المسيحية

اجل ، وستظل العقول ابدا حيرى امام عظمة ذلك
الانسان الذى ولدته امه « آمنة بنت وهب » بشرا سويا
ياكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، ويعرف لذع الحزن
ومساورة القلق ، ويذوق مرارة اليتيم ولوعة الشكل ، ويحب
ويتزوج ، ويلد ، ويموت ، شأن كل بشر ، ومع ذلك استطاع
أن يصنع تاريخ البشرية كلها منذ مطلع القرن السابع
الميلادى ، وأن يقرر مصائر دول عظمى وشعوب عريقة ،
ما كانت لتعرف شيئا عن تلك الجزيرة القاحلة الجرداء ،
ولا تحس وجودا لأهلها الذين ينتقلون على الابل بين فيافيها
المقفرة وصخورها العارية الجرداء ...

وهذا « كيتانى » الذى قضى أكثر عمره فى جوار
« الفاتيكان » وحمى « القديس بطرس » يشد رحاله الى
الجزيرة العربية فى صدر القرن الرابع عشر الهجرى ، لعله
يعرف هناك ، سر خلود ذلك الراعى اليتيم ، وتعلق أتباعه
به الى حد لا يعرف التاريخ له مثيلا ...

وهذا مستشرق انجليزى آخر ، يمسك قلمه ليتساءل
فى دهشة وعجب ، عن المعجزة التى جعلت من « ابن آمنة »
القرشية آكلة القديد ، بطل الأبطال كما وصفه « كارليل »
رغم كونه النبی الأوحى بين أنبياء العالم الذى ولد فى ضوء

التاريخ الكامل ، ولم يأت بغير كتاب عربى مبين ، يصر على بشريته ، وينحى عنه كل ما حف « بعيسى » قبله من قداسة والوهية

وهل عرفت الدنيا ابن أنثى قبله أو بعده ، يغدو سلوكه اليومي - كما يقول هوجارت - سواء فى الأمور الخطيرة أو الأمور التافهة ، القانون الذى يرعاه الملايين من أتباعه بكل دقة ، ويقلدونه عن يقين حتى إيماننا هذه ؟

« كلا » ولم يحدث أن اعتبر شخص واحد ، فى أية طائفة من طوائف الجنس البشرى ، المثل الكامل للإنسان ، فقلدت أفعاله بتمام الدقة ، كما حدث لمحمد بن عبد الله ، الذى وضعته « آمنة بنت وهب » كما تضع كل أنثى من البشر ، فى فجر يوم من أيام ربيع ، بجوار البيت العتيق ، ثم عاشت له حتى بلغ السادسة من عمره ، فسعت به الى قبر أبيه يشرب ، ثم خلفته وحيدا فى الطريق الى مكة !



ولم تدر « بركة » وهى تودع الجسد الطاهر تلك الحفرة الثائية فى جوف الصحراء ، أن الراحلة قد تركت وراءها ذكرا عريضا ممدودا يقهر الزمن ويقلب الفناء ، ولا أحسنت وهى تبكى سيدتها فى ذاك القفر الموحش ، أن قوما ممن آمنوا بابن السيدة « آمنة » ، قد زاروا قبرها بعد أعوام ، فخيّل اليهم أن الجن تنوح عليها منشدة :

نبكى الفتاة البرة الآمنة
ذات الجمال ، العفة الرزينة

زوجة عبد الله والقريبة
أم نبي الله ذي السكينة
لو فوديت لفوديت ثمينة
وللمنايا شفرة سنيينة
لا تبقيين ظاعنا ولا ظعينة
الا أتت، وقطعت وتينه..



سلام على « آمنة » سيدة الأمهات ، وأم النبي المبعوث
بآخر رسالات السماء !

بنت الشاطئ
(من الأمناء)



فهرس

صفحة

٨		مناجاة
١١		سيدة الامهات
٥٥		بينة ووراثة
٨١		زهرة قريش
١٠٩		العروس الأرملة
١١٩		أم اليتيم
١٥٧		الرحيل
١٦٩		الخالدة

كتاب الهلال

سلسلة كتب شهرية قيمة بثمن زهيد

هي خطوة ثقافية كبيرة قامت بهادارالهلال لتيسر القراءة المفيدة للجميع . . ففي الخامس من كل شهر يصدر كتاب قيم لأحد كبار الكتاب في الشرق والغرب ، في اخراج انيق وطباعة متقنة ، ثم الكتاب الواحد ٨٠ مليما (ماعدا كتاب زينب ١٠٠ مليم) بخلاف مصاريف البريد المسجل، وقد صدر من هذه السلسلة حتى الآن الكتب الآتية :

السيد عمر مكرم
تأليف محمد فريد أبو حديد

عبقرية محمد (نفذت نسخه)
تأليف عباس محمود العقاد

غاندى : القديس الشائر
تأليف لويس فيشر

ماجلان قاهر البحار
تأليف ستيفان زفايج

زعيم الثورة سعد زغلول
تأليف عباس محمود العقاد

هرون الرشيد
تأليف الدكتور أحمد أمين

الزعيم أحمد عرابي (نفذت نسخه)
تأليف عبد الرحمن الرافعي

أبو الشهداء
تأليف عباس محمود العقاد

بطلة كربلاء (نفذت نسخه)
تأليف الدكتورة بنت الشاطيء

جنكيز خان سفاح الشعوب
تأليف ف . يان

اشعب امير الطفيليين
تأليف توفيق الحكيم

قلب النسر
تأليف اوكتاف أوبرى

مصطفى كامل باعث النهضة الوطنية
تأليف عبد الرحمن الرافى

نفرتيتى ربة الجمال والتاج
تأليف صوفى عبد الله

القائد الاعظم محمد على جناح
تأليف عباس محمود العقاد

حديث رمضان
تأليف الامام محمد مصطفى المرافى

زينب
تأليف الدكتور محمد حسين هيكل

عقريه خالد
تأليف عباس محمود العقاد

مذكرات عرابى (جزء اول)
تأليف الزعيم احمد عرابى

الذئب الاغبر مصطفى كمال
تأليف الكابتن ه.س. ارمسترونج

مذكرات عرابى (جزء ثان)
تأليف الزعيم احمد عرابى

كليوباترة فى خان الخليلي
تأليف محمود تيمور

عقريه عمر
تأليف عباس محمود العقاد

الاسلام دين الفطرة
تأليف الشيخ عبد العزيز جاويز

لا تخف

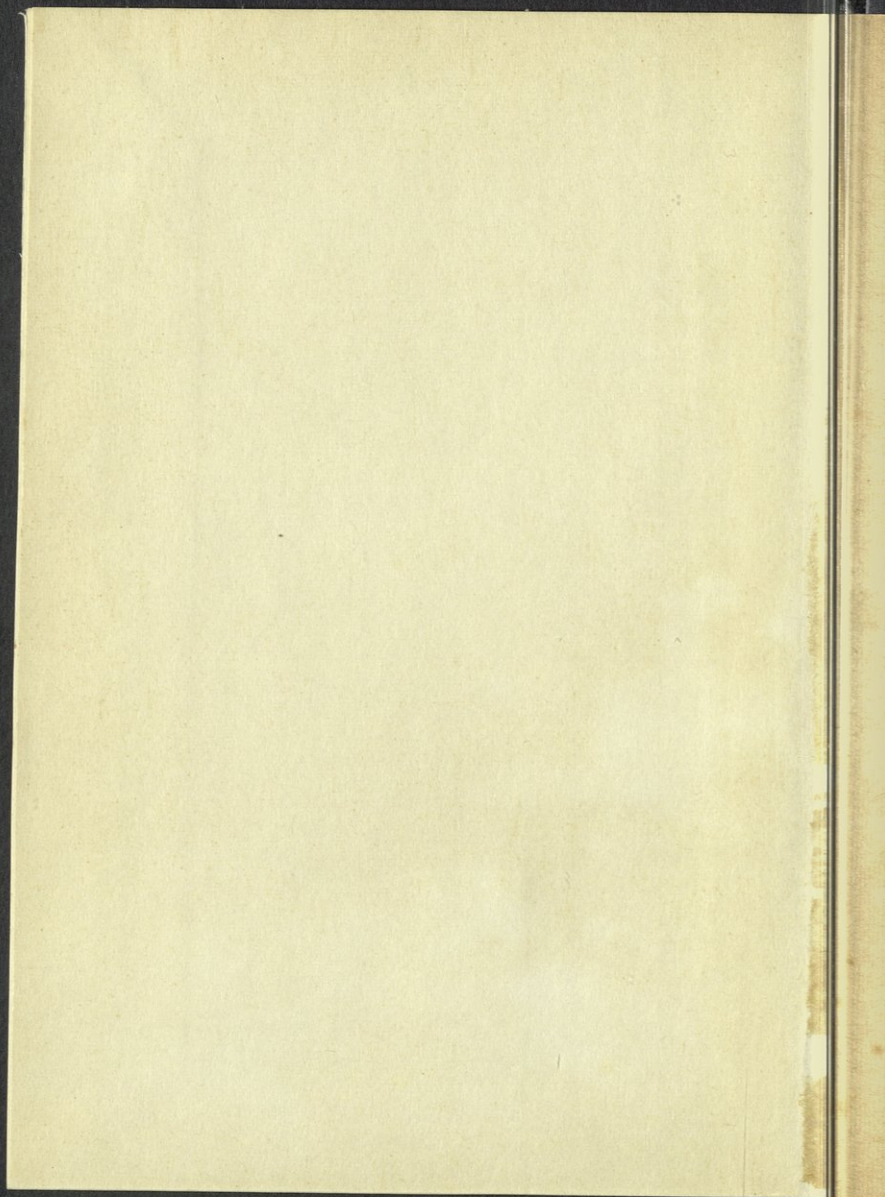
تأليف ادوارد سبنسر كولز

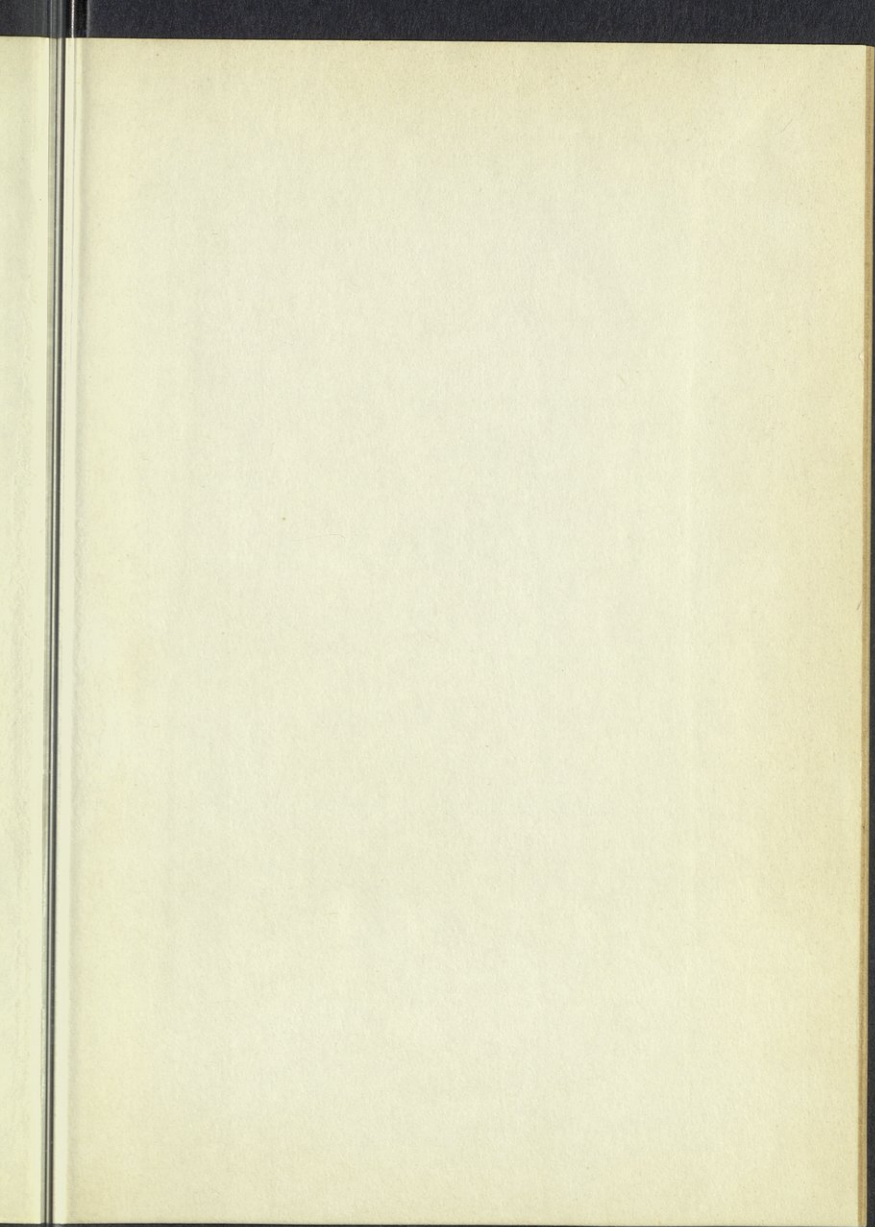
ويمكنك الحصول على ما ينقص مجموعتك من هذه الكتب من قسم
الاشتراكات بدار الهلال شارع محمد بك عز العرب (المتديان) بالقاهرة وشركة
الصحافة المصرية بشارع النبي دانيال بالاسكندرية ، ومن شركة الصحافة
المصرية بميدان المحطة بطنطا ، ومن السيد محمود حلمى صاحب المكتبة
العصرية شارع المتنبي ببغداد ، ومن شركة فرج الله للطبعات بشارع
بيكو طريق المالكى ببيروت ، ومن المكتب العام لتوزيع المطبوعات لصاحبه
السيد على نظام ببنية العابد بدمشق ، ومن جميع المكاتب المطبوعة الشهيرة ،
واكشاك الصحف ما عدا الكتب التى نفدت نسخها كما ترى فى هذا
الكشف

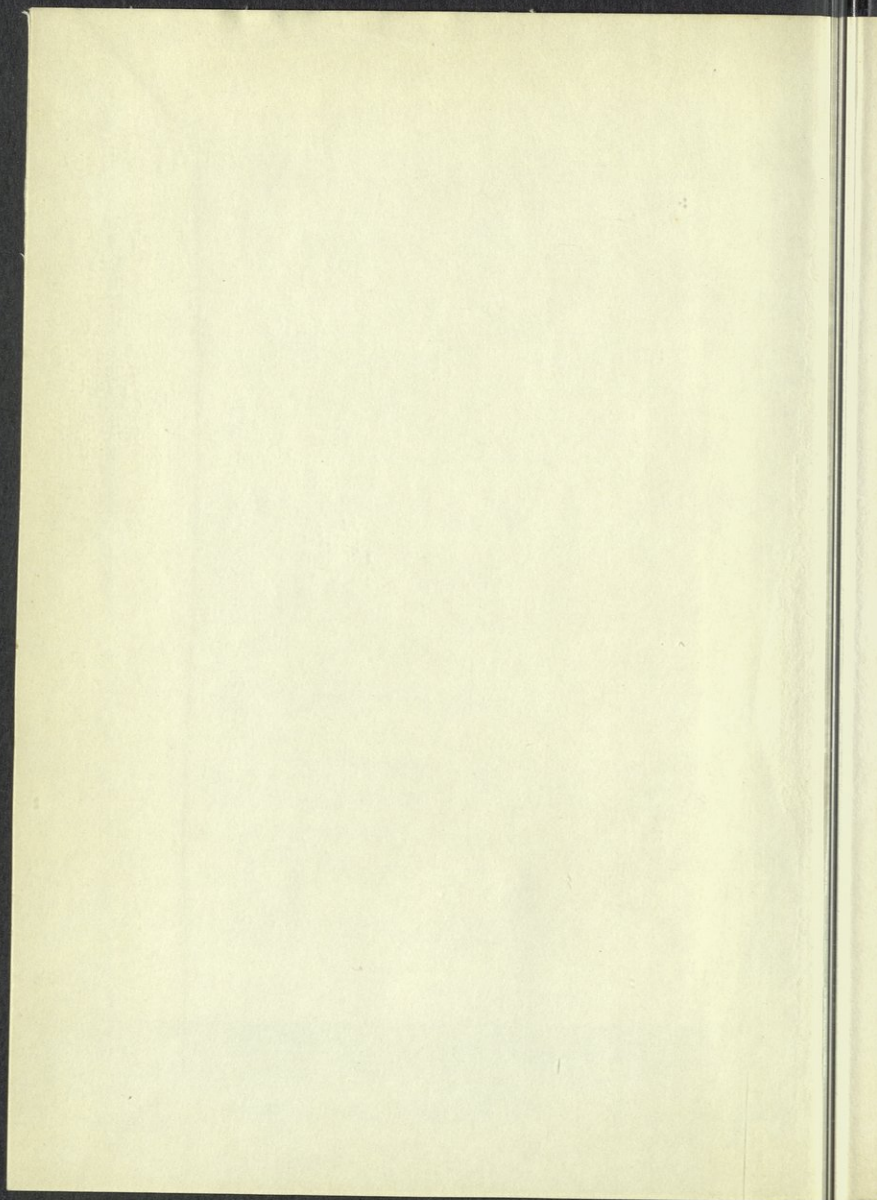
الكتاب القادم

فاطمة الزهراء
والفاطميون

تأليف الاستاذ
عباس محمود العقاد







DATE DUE

JAFET

J. Lib.

2

20 APR 1987

JAFET 1002

02 1993

JAFET LIB.

0 AUG 1988

عبد الرحمن ، عائشه
ام الرسول محمد: آمنة بنت وهب

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01011684

hose

